مُقَدِّمَاتُ مَنْطِقِ الْبَيَانِ

المَنْطِقُ سَجِينُ اللِّسَانِ:

العَرَبِيَّةُ وَالإِغْرِيقِيَّةُ وَجْهًا لِوَجْهٍ

مِنَ البَيَانِ إِلَى اللُّوغُوسِ:

دِرَاسَةٌ فِي الأُصُولِ اللِّسَانِيَّةِ لِلمَنْطِقِ

الدُّكْتُورُ ابْنُ عَبَّاسٍ العَامِلِيُّ

مُقَدِّمَاتُ مَنْطِقِ الْبَيَانِ

المَنْطِقُ سَجِينُ اللِّسَانِ:
العَرَبِيَّةُ وَالإِغْرِيقِيَّةُ وَجْهًا لِوَجْهٍ

مِنَ البَيَانِ إِلَى اللُّوغُوسِ: دِرَاسَةٌ فِي الأُصُولِ اللِّسَانِيَّةِ لِلْمَنْطِقِ

الدُّكْتُورُ ابْنُ عَبَّاسٍ الْعَامِلِيُّ

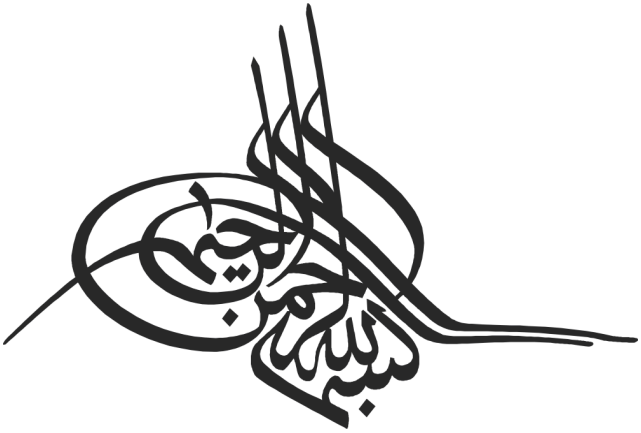

إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ
وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ

(هود: 88)

رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي
وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي

(طه: 25-27)

حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

المؤلف: إبن عبّاس العاملي، 2025

جميع حقوق الطبع محفوظة. لا يجوز إعادة طبع هذا الكتاب أو أي جزء منه أو نقله بأي شكل من الأشكال أو بأي وسيلة كانت، سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، دون إذن خطي مسبق من المؤلف أو الناشر، باستثناء حالات الاقتباس القصير لأغراض البحث أو النقد وفقًا لقوانين حقوق الطبع والنشر المعمول بها.

للتواصل مع المؤلف: IbnAbbasAlamili@gmail.com

نَسْخَةٌ مَحْدودَةٌ قَبْلَ النَّشْرِ

هَلِ اللُّغَةُ مُجَرَّدُ أَدَاةٍ نَسْتَخْدِمُهَا لِلتَّعْبِيرِ، أَمْ أَنَّهَا **"المِعْمَارُ الخَفِيُّ"** الَّذِي يَبْنِي عُقُولَنَا وَيُشَكِّلُ حَضَارَاتِنَا؟

فِي رِحْلَةٍ فَكْرِيَّةٍ جَرِيئَةٍ وَغَيْرِ مَسْبُوقَةٍ، يَغُوصُ هَذَا الكِتَابُ فِي أَعْمَاقِ "الشِّفْرَةِ المَصْدَرِيَّةِ" لِاثْنَيْنِ مِنْ أَهَمِّ أَلْسِنَةِ التَّارِيخِ: **اللِّسَانِ العَرَبِيِّ "العُضْوِيِّ"** وَ**اللِّسَانِ الإِغْرِيقِيِّ "الهَجِينِ"**. مُسْتَعِينًا بِأَدِلَّةٍ مِنَ اللِّسَانِيَّاتِ وَعُلُومِ الدِّمَاغِ وَتَارِيخِ الفَلْسَفَةِ، يُبَرْهِنُ البَحْثُ كَيْفَ أَنَّ "المُحَرِّكَ الاِشْتِقَاقِيَّ" لِلعَرَبِيَّةِ قَدْ أَنْتَجَ "عَقْلِيَّةً تَوْلِيدِيَّةً" تَجَلَّتْ فِي مَنْطِقِ البَيَانِ وَأُصُولِ الفِقْهِ، بَيْنَمَا أَنْتَجَ "المُحَرِّكُ التَّرْكِيبِيُّ" لِلْيُونَانِيَّةِ "عَقْلِيَّةً تَحْلِيلِيَّةً" تَجَلَّتْ فِي المَنْطِقِ الأَرِسْطِيِّ.

هَذَا الكِتَابُ لَيْسَ مُجَرَّدَ دِرَاسَةٍ مُقَارَنَةٍ، بَلْ هُوَ مَشْرُوعٌ لِفَهْمِ كَيْفِيَّةِ تَشَكُّلِ الهُوِيَّةِ وَالمَعْرِفَةِ. إِنَّهُ دَعْوَةٌ لِإِعَادَةِ النَّظَرِ فِي تَارِيخِ الفِكْرِ، وَأَدَاةٌ أَسَاسِيَّةٌ لِفَهْمِ أَزَمَاتِ الهَجَنَةِ اللُّغَوِيَّةِ وَتَحَدِّيَاتِ الهُوِيَّةِ فِي عَالَمِنَا المُعَاصِرِ.

تَنْوِيهٌ: حُدُودُ الْفَهْمِ وَإِمْكَانَاتُ التَّأْوِيلِ

إِنَّ هَذَا الْكِتَابَ، وَمَا يُقَدِّمُهُ مِنْ تَحْلِيلٍ وَتَأَمُّلٍ فِي الْإِسْلَامِ وَالْحَدَاثَةِ، لَيْسَ سِوَى مُحَاوَلَةٍ بَشَرِيَّةٍ لِاسْتِكْشَافِ الْوَاقِعِ وَاسْتِجْلَاءِ مَعَانِي النُّصُوصِ فِي سِيَاقِ التَّجْرِبَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْمُعَاصِرَةِ. إِنَّ أَيَّ فَهْمٍ يُطْرَحُ هُنَا، سَوَاءٌ تَعَلَّقَ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَوْ بِالْإِسْلَامِ عَامَّةً، إِنَّمَا يَعْكِسُ إِدْرَاكَ الْقَارِئِ وَسَعْيَهُ الْمُخْلِصَ لِلِاقْتِرَابِ مِنَ الْحَقِيقَةِ، بِقَدْرِ مَا تَسْمَحُ بِهِ أَدَوَاتُهُ الْعَقْلِيَّةُ وَمُعْطَيَاتُهُ الْمَعْرِفِيَّةُ. غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَدَّعِي، بِأَيِّ حَالٍ، أَنَّهُ الْفَهْمُ النِّهَائِيُّ أَوِ الْمُطْلَقُ لِمَا أَرَادَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَرَسُولُهُ (ص)، فَاللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ بِالْمُرَادِ الْحَقِّ مِنْ كَلَامِهِ وَسُنَّتِهِ.

إِنَّ طَبِيعَةَ الْفِكْرِ الْبَشَرِيِّ تَقْتَضِي الْبَحْثَ وَالسُّؤَالَ وَإِعَادَةَ النَّظَرِ، وَمَعْرِفَةُ الْإِنْسَانِ تَظَلُّ مَحْدُودَةً بِحُدُودِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ وَالْمَقْدِرَةِ الْعَقْلِيَّةِ. وَمِنْ هُنَا، فَإِنَّ أَيَّ تَأْوِيلٍ أَوْ تَحْلِيلٍ يَجِبُ أَنْ يُنْظَرَ إِلَيْهِ فِي إِطَارِهِ كَبَشَرٍ يَسْعَى لِلتَّقَرُّبِ إِلَى الْحَقِيقَةِ، لَا كَمَوْقِفٍ قَطْعِيٍّ يُلْزِمُ الْآخَرِينَ أَوْ يَدَّعِي الْعِصْمَةَ مِنَ الْخَطَأِ.

يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي مُحْكَمِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ:

﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الْإِسْرَاء: 85)،

وَنُرَدِّدُ فِي دُعَائِنَا:

﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه: 114).

قَائِمَةُ المُحْتَوَياتِ

قَائِمَةُ المُحْتَوَياتِ 7

الإِهْدَاءُ الأوّل 9

الإِهْدَاءُ الثّاني 10

كَلِمَةُ المُؤَلِّفِ 11

تمهيد: لِمَاذَا العَرَبِيَّةُ فِي مُوَاجَهَةِ الإِغْرِيقِيَّةِ؟ 15

المُقَدِّمَةُ وَطَرْحُ الإِشْكَالِيَّةِ **17**

الإِطَارُ النَّظَرِيُّ وَالمَنْهَجِيُّ 21

الجُزْءُ الأَوَّلُ: المِعْمَارِيَّاتُ اللُّغَوِيَّةُ المُؤَسِّسَةُ **27**

الفَصْلُ الأَوَّلُ: المُحَرِّكُ التَّوْلِيدِيُّ العَرَبِيُّ 29

الفَصْلُ الثَّانِي: المُحَرِّكُ التَّرْكِيبِيُّ الإِغْرِيقِيُّ 40

الجُزْءُ الثَّانِي: الآثَارُ الإِدْرَاكِيَّةُ وَالعَصَبِيَّةُ **48**

الفَصْلُ الثَّالِثُ: العَقْلِيَّةُ الاشْتِقَاقِيَّةُ 50

الفَصْلُ الرَّابِعُ: العَقْلِيَّةُ التَّحْلِيلِيَّةُ 58

الفَصْلُ الخَامِسُ: نَمُوذَجٌ عَصَبِيٌّ-مَعْرِفِيٌّ مُقْتَرَحٌ 64

الجُزْءُ الثَّالِثُ: التَّجَلِّيَاتُ الحَضَارِيَّةُ الكُبْرَى **71**

الفَصْلُ السَّادِسُ: تَجَلِّي "مَنْطِقِ البَيَانِ" فِي عِلْمِ أُصُولِ الفِقْهِ 73
الفَصْلُ السَّابِعُ: تَجَلِّي "المَنْطِقِ الصُّورِيِّ" فِي مَشْرُوعِ أَرِسْطُو 79

الجُزْءُ الرَّابِعُ: الخَاتِمَةُ وَالآفَاقُ المُسْتَقْبَلِيَّةُ 84
الفَصْلُ الثَّامِنُ: مِنْ بِنْيَةِ اللِّسَانِ إِلَى مَصِيرِ الحَضَارَةِ 86
الفَصْلُ التَّاسِعُ: مَا بَعْدَ الهُوِيَّةِ وَاللِّسَانِ 93

الخَاتِمَةُ: اللِّسَانُ مَصِيرًا 98

المراجع 102

الإِهْدَاءُ الأوّل

إِلَى رُوحَي وَالِدَيَّ الطَّاهِرَتَيْنِ،

أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَتَقَبَّلَ هٰذَا العَمَلَ، وَيَجْعَلَهُ صَدَقَةً جَارِيَةً فِي مِيزَانِ حَسَنَاتِكُمَا، وَأَنْ يَرْفَعَ دَرَجَتَكُمَا فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ.

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ (إِبْرَاهِيم: ٤١)

﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (الإِسْرَاء: ٢٤)

رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ، وَارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا، وَاجْزِهِمَا بِالإِحْسَانِ إِحْسَانًا، وَبِالسَّيِّئَاتِ عَفْوًا وَغُفْرَانًا.

رَحِمَكُمَا اللهُ بِوَاسِعِ رَحْمَتِهِ، وَأَسْكَنَكُمَا الفِرْدَوْسَ الأَعْلَى.

المُؤَلِّفُ

الإِهْدَاءُ الثّاني

إِلَى زَوْجَتِي الْحَبِيبَةِ، وَرَفِيقَةِ دَرْبِي مُنْذُ اثْنَيْنِ وَأَرْبَعِينَ عَامًا، أُمِّ أَوْلَادِي السَّبْعَةِ، وَعِشْقِي الْخَالِدِ، وَصَدِيقَتِي وَمُلْهَمَتِي.

إِلَيْكِ أُهْدِي هٰذَا الْعَمَلَ، أَنْتِ الَّتِي كُنْتِ قَبْلَ أَنْ تَصِيرِي أُسْتَاذَةً جَامِعِيَّةً، الْمُرَبِّيَةَ الْأُولَى فِي بَيْتِنَا؛ فَرَبَّيْتِ أَوْلَادَنَا السَّبْعَةَ وَعَلَّمْتِهِمْ فِي الْمَدْرَسَةِ الْبَيْتِيَّةِ، فَتَفَوَّقُوا بِفَضْلِ اللهِ فِي الْعِلْمِ وَالتَّرْبِيَةِ وَالأَخْلَاقِ وَالدِّينِ.

ثُمَّ انْطَلَقْتِ بَعْدَ ذٰلِكَ تُعَلِّمِينَ فِي الْجَامِعَةِ بِرِسَالَةٍ نَبِيلَةٍ، تَفْتَحِينَ لِلْجِيلِ الْجَدِيدِ أَبْوَابَ الْحَيَاةِ، وَتُرْشِدِينَهُمْ إِلَى طَرِيقِ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ.

فَكُنْتِ فكنتِ نِعْمَ الزَّوْجَةَ، ونِعْمَ الأُمَّ، ونِعْمَ المُعَلِّمَةَ، ونِعْمَ الحَبِيبَةَ، جَعَلَكِ اللهُ لِي وَلِأَوْلَادِنَا ذُخْرًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

كَلِمَةُ المُؤَلِّفِ

لِطَالَمَا شَغَلَنِي، خِلَالَ مَسِيرَتِي البَحْثِيَّةِ الطَّوِيلَةِ فِي تُخُومِ المَنْطِقِ وَالمَعْرِفَةِ وَاللِّسَانِيَّاتِ، سُؤَالٌ جَوْهَرِيٌّ بَدَا لِي مُفْتَاحًا لِفَهْمِ الكَثِيرِ مِنْ أَزَمَاتِ فِكْرِنَا المُعَاصِرِ:

لِمَاذَا يَسْتَعْمِلُ المُسْلِمُونَ المَنْطِقَ الأَرِسْطِيَّ الإِغْرِيقِيَّ وَلَا يَسْتَعْمِلُونَ مَنْطِقَ القُرْآنِ؟

وَلِمَاذَا تَبْدُو الأَدَوَاتُ المَعْرِفِيَّةُ الَّتِي وَرِثْنَاهَا عَنِ التَّقْلِيدِ الإِغْرِيقِيِّ —وَالَّتِي بَنَتْ عَلَيْهَا الحَدَاثَةُ الغَرْبِيَّةُ صَرْحَهَا— قَاصِرَةً، وَأَحْيَانًا مُشَوِّهَةً، عِنْدَمَا نُحَاوِلُ تَطْبِيقَهَا عَلَى نَصٍّ مِحْوَرِيٍّ كَالْقُرْآنِ الكَرِيمِ؟

كَانَ هُنَاكَ شُعُورٌ دَائِمٌ بِوُجُودِ "عَدَمِ تَآلُفٍ" بُنْيَوِيٍّ، كَمَنْ يُحَاوِلُ قِيَاسَ نَسِيجٍ حَرِيرِيٍّ بِمِسْطَرَةٍ حَدِيدِيَّةٍ.

وَمَعَ مُرُورِ الوَقْتِ وَتَعَمُّقِ البَحْثِ، أَدْرَكْتُ أَنَّ الجَوَابَ لَا يَكْمُنُ فِي المَنْطِقِ وَالمَعْرِفَةِ بِمَعْزِلٍ عَنْ أَصْلِهِمَا، بَلْ فِي أَرْضٍ أَكْثَرَ عُمْقًا وَتَأْسِيسًا: إِنَّهَا أَرْضُ **اللِّسَانِ**. لَقَدْ تَوَصَّلْتُ إِلَى قَنَاعَةٍ رَاسِخَةٍ، وَهِيَ القَنَاعَةُ الَّتِي تُشَكِّلُ العَمُودَ الفِقْرِيَّ لِهَذَا العَمَلِ:

أَنَّ المَنْطِقَ هُوَ نِتَاجُ اللُّغَةِ وَالبِنْيَةِ المَعْرِفِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ المُنْتِجَةِ لَهُ.

فَالْمَنْطِقُ لَيْسَ كَوْنِيًّا وَمُتَعَالِيًا كَمَا يُدَّعَى، بَلْ هُوَ **أَسِيرُ اللِّسَانِ**، مَحْدُودٌ بِحُدُودِهِ، وَمُوَجَّهٌ بِبِنْيَتِهِ. فَاللُّغَةُ هِيَ الأَسَاسُ الحَقِيقِيُّ لِلتَّفْكِيرِ وَالعَقْلِ، وَهِيَ بِالتَّالِي مَنْشَأُ الحَضَارَةِ وَقَاعِدَتُهَا.

مِنْ هَذَا المُنْطَلَقِ، وُلِدَ هَذَا الكِتَابُ الَّذِي بَيْنَ أَيْدِيكُمْ. لَكِنْ، وَقَبْلَ الشُّرُوعِ فِي بِنَاءِ "مَنْطِقٍ" بَدِيلٍ، كَانَ لَا بُدَّ مِنْ القِيَامِ بِعَمَلِيَّةِ "هَدْمٍ مَنْهَجِيٍّ" لِلْقَنَاعَاتِ الرَّاسِخَةِ وَكَشْفِ غُرْبَةِ المَنْطِقِ الوَافِدِ. لِذَلِكَ، فَإِنَّ **أُطْرُوحَةَ هَذَا الكِتَابِ هِيَ إِثْبَاتُ عَدَمِ تَآلُفِ وَتَمَاسُكِ وَاتِّسَاقِ المَنْطِقِ الإِغْرِيقِيِّ مَعَ اللِّسَانِ العَرَبِيِّ المُبِينِ وَمَنْطِقِ القُرْآنِ وَالعُلُومِ الإِسْلَامِيَّةِ**. لَقَدْ كَانَتْ مُهِمَّتُنَا الأُولَى هِيَ تَشْرِيحَ النَّمُوذَجَيْنِ، العَرَبِيِّ وَالإِغْرِيقِيِّ، لِنُبَيِّنَ بِأَدِلَّةٍ لُغَوِيَّةٍ وَإِدْرَاكِيَّةٍ وَعَصَبِيَّةٍ أَنَّهُمَا يَنْتَمِيَانِ إِلَى "فَصِيلَتَيْنِ" مُخْتَلِفَتَيْنِ مِنَ التَّفْكِيرِ وَالوُجُودِ.

لِهَذَا، يَجْدُرُ بِي أَنْ أُوَضِّحَ لِلْقَارِئِ الكَرِيمِ أَنَّ هَذَا العَمَلَ، عَلَى طُولِهِ وَتَشَعُّبِهِ، يَجِبُ أَنْ يُقْرَأَ بِاعْتِبَارِهِ **مُقَدِّمَةً طَوِيلَةً وَلَكِنَّهَا ضَرُورِيَّةٌ** لِمَشْرُوعٍ أَكْبَرَ وَأَكْثَرَ أَهَمِّيَّةً، وَهُوَ الكِتَابُ القَادِمُ بِعَوْنِ اللهِ:

مَنْطِقُ البَيَانِ لِإِدْرَاكِ القُرْآنِ

فَبَعْدَ أَنْ قُمْنَا فِي هَذَا الكِتَابِ بِتَفْكِيكِ المَنْطِقِ الوَافِدِ وَبَيَانِ غُرْبَتِهِ عَنْ بِنْيَةِ لِسَانِنَا، سَتَكُونُ المُهِمَّةُ فِي الكِتَابِ القَادِمِ بِنَائِيَّةً وَتَأْسِيسِيَّةً. سَتَكُونُ مُحَاوَلَةً جَادَّةً **لِتَوْلِيدِ "مَنْطِقِ البَيَانِ" مُبَاشَرَةً مِنَ اللِّسَانِ العَرَبِيِّ المُبِينِ وَالقُرْآنِ الكَرِيمِ**، وَاسْتِخْرَاجِ قَوَاعِدِهِ وَأُصُولِهِ مِنْهُ، لَا مِنْ أَيِّ مَصْدَرٍ خَارِجِيٍّ.

أَشْكُرُكُمْ عَلَى صُحْبَتِكُمْ لِي فِي هَذِهِ الرِّحْلَةِ الأُولَى، رِحْلَةِ التَّفْكِيكِ وَالمُقَارَنَةِ، وَآمُلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا العَمَلُ قَدْ مَهَّدَ الطَّرِيقَ لِلرِّحْلَةِ القَادِمَةِ الأَهَمِّ، رِحْلَةِ البِنَاءِ وَالتَّأْصِيلِ.

واللَّهُ وَليُّ التَّوفِيقِ.

المُؤَلِّفْ

تمهيد: لِمَاذَا العَرَبِيَّةُ فِي مُوَاجَهَةِ الإِغْرِيقِيَّةِ؟

يَحْمِلُ عُنْوَانُ هَذَا الكِتَابِ —**"مَنْطِقُ اللِّسَانِ: العَرَبِيَّةُ وَالإِغْرِيقِيَّةُ وَجْهًا لِوَجْهٍ"**— أُطْرُوحَةً مَرْكَزِيَّةً، لَا حُكْمًا قِيَمِيًّا مُتَعَجِّلًا. فَهُوَ لَيْسَ دَعْوَةً لِلتَّفَاخُرِ الثَّقَافِيِّ، بَلْ هُوَ تَأْسِيسٌ لِمَنْهَجٍ تَحْلِيلِيٍّ يَقُومُ عَلَى فَرَضِيَّةٍ جَوْهَرِيَّةٍ:

إِنَّ هُنَاكَ عَلَاقَةً عُضْوِيَّةً عَمِيقَةً بَيْنَ البِنْيَةِ الدَّاخِلِيَّةِ لِلِّسَانِ وَطَبِيعَةِ "المَنْطِقِ" وَ"الهُوِيَّةِ" الحَضَارِيَّةِ الَّتِي يُنْتِجُهَا.

يُقَدِّمُ هَذَا البَحْثُ مُقَارَنَةً بَيْنَ نَمُوذَجَيْنِ أَصْلِيَّيْنِ: **اللِّسَانُ العُضْوِيُّ**، الَّذِي يَنْمُو وَيَتَوَالَدُ مِنْ دَاخِلِهِ، وَنُمَثِّلُ لَهُ بِاللِّسَانِ العَرَبِيِّ المُبِينِ؛ وَ**اللِّسَانُ الهَجِينُ**، الَّذِي يَتَشَكَّلُ عَبْرَ التَّرَاكُمِ وَالاقْتِرَاضِ وَالتَّلْفِيقِ، وَنُمَثِّلُ لَهُ بِاللِّسَانِ الإِغْرِيقِيِّ.

لَمْ يَكُنِ اخْتِيَارُنَا لِلِّسَانِ الإِغْرِيقِيِّ كَنَمُوذَجٍ مُقَابِلٍ أَمْرًا اعْتِبَاطِيًّا، بَلْ لِأَنَّهُ يَحْتَلُّ مَكَانَةً تَأْسِيسِيَّةً مُزْدَوَجَةً فِي تَارِيخِ الحَضَارَةِ الغَرْبِيَّةِ.

فَمِنْ نَاحِيَةٍ، تُمَثِّلُ الإِغْرِيقِيَّةُ اللَّحْظَةَ التَّارِيخِيَّةَ الأُولَى الَّتِي **"تَهَجَّنَتْ"** فِيهَا لُغَةٌ "غَرْبِيّةٌ" شَفَهِيَّةٌ مَعَ أَدَاةِ كِتَابَةٍ (الأَبْجَدِيَّةُ الفِينِيقِيَّةُ) تَنْتَمِي إِلَى عَائِلَةٍ لُغَوِيَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ كُلِّيًّا. هَذَا الحَدَثُ، كَمَا يُؤَكِّدُ مُؤَرِّخُو الكِتَابَةِ (Powell, 1996)، لَمْ يَكُنْ مُجَرَّدَ نَقْلٍ تَقْنِيٍّ، بَلْ كَانَ عَمَلِيَّةَ "تَلْفِيقٍ" وَتَكْيِيفٍ أَسَّسَتْ لِعَلَاقَةٍ جَدِيدَةٍ بَيْنَ الصَّوْتِ وَالخَطِّ. لِذَلِكَ، أَصْبَحَتِ الإِغْرِيقِيَّةُ هِيَ

الأُنْمُوذَجَ الأَوَّلِيَّ (Archetype) **لِلْهُجْنَةِ اللُّغَوِيَّةِ الكِتَابِيَّةِ فِي الغَرْبِ**، وَمِنْهَا انْطَلَقَتْ كُلُّ الكِتَابِيَّةِ الأُورُوبِيَّةِ اللَّاحِقَةِ، سَوَاءٌ اللَّاتِينِيَّةُ (الَّتِي اقْتَبَسَتْ أَبْجَدِيَّتَهَا مِنَ الإِغْرِيقِيَّةِ)، أَوِ الجِرْمَانِيَّةُ، أَوِ السِّلَافِيَّةُ. فَهَذَا اللِّسَانُ، بِبِنْيَتِهِ التَّرْكِيبِيَّةِ وَلَحْظَتِهِ التَّأْسِيسِيَّةِ الهَجِينَةِ، هَيَّأَ المَسْرَحَ لِنَشْأَةِ نَمَطٍ فِكْرِيٍّ تَحْلِيلِيٍّ وَتَصْنِيفِيٍّ بَلَغَ ذِرْوَتَهُ مَعَ أَرِسْطُو. بِهَذَا، تُصْبِحُ الإِغْرِيقِيَّةُ هِيَ المِثَالَ الأَمْثَلَ لِدِرَاسَةِ العَلَاقَةِ بَيْنَ "اللِّسَانِ الهَجِينِ" وَ"المَنْطِقِ التَّحْلِيلِيِّ".

وَمِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، وَفِي نَتِيجَةٍ مُبَاشِرَةٍ لِهَذِهِ البِنْيَةِ التَّرْكِيبِيَّةِ، تَحْتَلُّ الإِغْرِيقِيَّةُ مَكَانَةً تَأْسِيسِيَّةً لَا تُضَاهَى فِي تَارِيخِ **الفَلْسَفَةِ وَالمَنْطِقِ الصُّورِيِّ**. هَذَا المَنْطِقُ بِعَيْنِهِ هُوَ الَّذِي تَمَّ اسْتِيرَادُهُ لَاحِقًا لِيَدْخُلَ فِي صِرَاعٍ وَتَفَاعُلٍ عَمِيقَيْنِ مَعَ الثَّقَافَةِ وَالعُلُومِ الإِسْلَامِيَّةِ، وَهُوَ مَا يَجْعَلُ مِنْ نُقْطَةِ التَّلَاقِي وَالتَّنَافُرِ هَذِهِ **قُطْبَ الرَّحَى فِي دِرَاسَتِنَا هَذِهِ**.

مِنْ هُنَا، تُصْبِحُ المُقَارَبَةُ المُقَارِنَةُ بَيْنَ العَرَبِيَّةِ وَالإِغْرِيقِيَّةِ هِيَ أَفْضَلَ وَسِيلَةٍ عِلْمِيَّةٍ لِشَرْحٍ تَطْبِيقِيٍّ حَيٍّ لِلْفَرْقِ الجَوْهَرِيِّ بَيْنَ اللِّسَانِ العُضْوِيِّ وَاللِّسَانِ الهَجِينِ، وَبَيْنَ **مَنْطِقِ البَيَانِ وَمَنْطِقِ اليُونَانِ**. فَبَدَلًا مِنَ الحَدِيثِ المُجَرَّدِ، نَضَعُ أَمَامَ القَارِئِ "حَالَتَيْ دِرَاسَةٍ" مِحْوَرِيَّتَيْنِ، نُشَرِّحُ فِي كُلٍّ مِنْهُمَا البِنْيَةَ الدَّاخِلِيَّةَ لِلِّسَانِ وَنَتَتَبَّعُ أَثَرَهَا فِي تَشْكِيلِ الفِكْرِ وَالهُوِيَّةِ. فَهَذِهِ المُقَارَنَةُ لَيْسَتْ غَايَةً بِذَاتِهَا، بَلْ هِيَ المَنْهَجُ الَّذِي سَيَكْشِفُ لَنَا عَنْ حَقِيقَةٍ أَعْمَقَ: **أَنَّ طَرِيقَةَ بِنَاءِ الكَلِمَةِ تَرْتَبِطُ ارْتِبَاطًا وَثِيقًا بِطَرِيقَةِ صِنَاعَةِ الحَضَارَةِ وَبِنَاءِ العَالَمِ**.

المُقَدِّمَةُ وَطَرْحُ الإِشْكَالِيَّةِ

يَنْطَلِقُ هَذَا المَشْرُوعُ البَحْثِيُّ مِنْ سُؤَالٍ جَوْهَرِيٍّ فِي تَارِيخِ الأَفْكَارِ وَفَلْسَفَةِ اللُّغَةِ:

إِلَى أَيِّ حَدٍّ تُسْهِمُ البِنْيَةُ العَمِيقَةُ لِلِسَانٍ مَا فِي تَشْكِيلِ "الأُسْلُوبِ الإِدْرَاكِيِّ" (Cognitive Style) وَ"النَّمَطِ المَنْطِقِيِّ" لِحَضَارَةٍ بِأَكْمَلِهَا؟

مُتَجَاوِزِينَ النَّظْرَةَ التَّقْلِيدِيَّةَ الَّتِي تَفْصِلُ بَيْنَ "تَارِيخِ المَنْطِقِ" وَ"تَارِيخِ اللُّغَةِ"، تَقُومُ هَذِهِ الدِّرَاسَةُ عَلَى فَرَضِيَّةٍ مَرْكَزِيَّةٍ مَفَادُهَا أَنَّ المَنَاهِجَ المَعْرِفِيَّةَ الكُبْرَى الَّتِي سَادَتْ فِي الحَضَارَتَيْنِ المِحْوَرِيَّتَيْنِ، الإِغْرِيقِيَّةِ وَالإِسْلَامِيَّةِ، لَيْسَتْ مُجَرَّدَ اخْتِرَاعَاتٍ فَلْسَفِيَّةٍ مُجَرَّدَةٍ، بَلْ هِيَ تَجَلٍّ وَتَقْنِينٌ لِـ "عَادَاتٍ عَقْلِيَّةٍ" مُتَجَذِّرَةٍ فِي البِنْيَةِ الصَّرْفِيَّةِ وَالتَّرْكِيبِيَّةِ لِكُلٍّ مِنَ اللِّسَانَيْنِ الإِغْرِيقِيِّ وَالعَرَبِيِّ.

تَتَمَثَّلُ إِشْكَالِيَّةُ البَحْثِ فِي تَشْرِيحِ وَمُقَارَنَةِ "مَسَارَيْنِ" مُتَبَايِنَيْنِ لِنَشْأَةِ "المَنْطِقِ":

- **المَسَارُ الأَوَّلُ**، كَيْفَ نَشَأَ **"مَنْطِقُ البَيَانِ القُرْآنِيِّ"** العَلَائِقِيُّ وَالقِيَاسِيُّ مِنْ رَحِمِ بِنْيَةِ اللِّسَانِ العَرَبِيِّ "العُضْوِيَّةِ" وَ"الاشْتِقَاقِيَّةِ". وَ

- **المَسَارُ الثَّانِي**، كَيْفَ نَشَأَ **"المَنْطِقُ الصُّورِيُّ الأَرِسْطِيُّ"** التَّحْلِيلِيُّ وَالتَّصْنِيفِيُّ كَاسْتِجَابَةٍ لِطَبِيعَةِ اللِّسَانِ الإِغْرِيقِيِّ "الهَجِينَةِ" وَ"التَّرْكِيبِيَّةِ".

سَتَقُومُ هَذِهِ الدِّرَاسَةُ الشَّامِلَةُ، بِاسْتِخْدَامِ أَدَوَاتٍ مِنَ اللِّسَانِيَّاتِ وَعِلْمِ الأَعْصَابِ الإِدْرَاكِيِّ وَعِلْمِ النَّفْسِ المَعْرِفِيِّ وَتَارِيخِ العُلُومِ، بِبِنَاءِ نَمُوذَجٍ تَفْسِيرِيٍّ يُبَيِّنُ بِأَدِلَّةٍ مُتَعَدِّدَةِ المُسْتَوَيَاتِ كَيْفَ تَكُونُ البِنْيَةُ اللُّغَوِيَّةُ هِيَ "المِعْمَارَ الخَفِيَّ" لِبِنْيَةِ العَقْلِ.

أَسْئِلَةُ البَحْثِ الرَّئِيسَةُ

يَسْعَى هَذَا المَشْرُوعُ لِلْإِجَابَةِ عَلَى الأَسْئِلَةِ التَّأْسِيسِيَّةِ التَّالِيَةِ:

1. **السُّؤَالُ الأَوَّلُ (النَّمُوذَجُ العَرَبِيُّ):**

   كَيْفَ تَرْتَبِطُ البِنْيَةُ الاشْتِقَاقِيَّةُ-الجَذْرِيَّةُ لِلِّسَانِ العَرَبِيِّ ارْتِبَاطًا بُنْيَوِيًّا بِـ "المَنْطِقِ القِيَاسِيِّ-العَلَائِقِيِّ" المُتَجَلِّي فِي البَيَانِ القُرْآنِيِّ وَعِلْمِ أُصُولِ الفِقْهِ؟

2. **السُّؤَالُ الثَّانِي (النَّمُوذَجُ الإِغْرِيقِيُّ):**

   كَيْفَ تَرْتَبِطُ البِنْيَةُ التَّرْكِيبِيَّةُ-التَّجْمِيعِيَّةُ لِلِّسَانِ الإِغْرِيقِيِّ ارْتِبَاطًا بُنْيَوِيًّا بِـ "المَنْطِقِ التَّحْلِيلِيِّ-التَّصْنِيفِيِّ" الَّذِي بَلَغَ ذِرْوَتَهُ فِي مَشْرُوعِ أَرِسْطُو المَنْطِقِيِّ؟

3. **السُّؤَالُ الثَّالِثُ (الوَسِيطُ الإِدْرَاكِيُّ):**

مَا هِيَ الآلِيَّاتُ الإِدْرَاكِيَّةُ وَالعَصَبِيَّةُ المُحْتَمَلَةُ (كَالمُرُونَةِ العَصَبِيَّةِ وَأَنْظِمَةِ الذَّاكِرَةِ) الَّتِي تَرْبِطُ هَذِهِ البِنَى اللُّغَوِيَّةَ الخَاصَّةَ بِهَذِهِ الأَسَالِيبِ المَعْرِفِيَّةِ المُحَدَّدَةِ؟

4. **السُّؤَالُ الرَّابِعُ (النَّتِيجَةُ الحَضَارِيَّةُ):**

مَا هِيَ الآثَارُ الحَضَارِيَّةُ الأَوْسَعُ لِتَبَنِّي حَضَارَةٍ مَا لِـ "مَنْطِقٍ دَاخِلِيٍّ" نَابِعٍ مِنْ لِسَانِهَا مُقَابِلَ حَضَارَةٍ أُخْرَى تُطَوِّرُ "مَنْطِقًا خَارِجِيًّا" لِضَبْطِ لِسَانِهَا؟

الإِطَارُ النَّظَرِيُّ وَالمَنْهَجِيُّ

إِنَّ طَبِيعَةَ الإِشْكَالِيَّةِ المَطْرُوحَةِ، الَّتِي تَقَعُ عَلَى تُخُومِ اللُّغَةِ وَالفِكْرِ وَتَارِيخِ الحَضَارَاتِ، تَفْرِضُ عَلَيْنَا تَبَنِّيَ إِطَارٍ نَظَرِيٍّ وَمَنْهَجِيٍّ مُرَكَّبٍ وَبَيْنِيٍّ (Interdisciplinary). فَلَا يُمْكِنُ لِأَيِّ حَقْلٍ مَعْرِفِيٍّ بِمُفْرَدِهِ أَنْ يُحِيطَ بِجَمِيعِ أَبْعَادِ هَذِهِ العَلَاقَةِ المُعَقَّدَةِ. لِذَلِكَ، تَسْتَمِدُّ هَذِهِ الدِّرَاسَةُ أُسُسَهَا مِنْ تَضَافُرِ حُقُولٍ مُتَعَدِّدَةٍ، مُحَاوِلَةً بِنَاءَ جِسْرٍ مَعْرِفِيٍّ بَيْنَ اللِّسَانِيَّاتِ وَعُلُومِ الدِّمَاغِ وَتَارِيخِ الأَفْكَارِ.

الإِطَارُ النَّظَرِيُّ: أَدَوَاتُ الفَهْمِ

يَسْتَنِدُ هَذَا البَحْثُ إِلَى ثَلَاثِ رَكَائِزَ نَظَرِيَّةٍ أَسَاسِيَّةٍ تُشَكِّلُ المِظَلَّةَ المَفَاهِيمِيَّةَ لِلدِّرَاسَةِ:

1. اللِّسَانِيَّاتُ المَعْرِفِيَّةُ (Cognitive Linguistics):

تَنْطَلِقُ اللِّسَانِيَّاتُ المَعْرِفِيَّةُ مِنْ فَرَضِيَّةٍ أَسَاسِيَّةٍ مَفَادُهَا أَنَّ اللُّغَةَ لَيْسَتْ نِظَامًا رَمْزِيًّا مُسْتَقِلًّا، بَلْ هِيَ نَافِذَةٌ عَلَى عَمَلِيَّاتِ العَقْلِ البَشَرِيِّ وَانْعِكَاسٌ لَهَا. وَسَنَعْتَمِدُ عَلَى تَوَجُّهَيْنِ رَئِيسَيْنِ دَاخِلَ هَذَا الحَقْلِ:

- **النِّسْبِيَّةُ اللُّغَوِيَّةُ المُعَدَّلَةُ** (Modified Linguistic Relativity):

نَتَبَنَّى نُسْخَةً مُعَدَّلَةً وَغَيْرَ حَتْمِيَّةٍ مِنْ فَرَضِيَّةِ "سَابِير-وُورْف"، الَّتِي تَرَى أَنَّ اللُّغَةَ لَا "تَحْتِمُ" الفِكْرَ، بَلْ **"تُوَجِّهُهُ" وَتُسَهِّلُ أَنْمَاطًا مُعَيَّنَةً مِنْهُ** عَلَى حِسَابِ أَنْمَاطٍ أُخْرَى. فَالبِنْيَةُ اللُّغَوِيَّةُ تَخْلُقُ "عَادَاتٍ فِكْرِيَّةً" (Habitual Thought) تَجْعَلُ بَعْضَ طُرُقِ تَحْلِيلِ الوَاقِعِ أَكْثَرَ "طَبِيعِيَّةً" وَسُهُولَةً لَدَى النَّاطِقِينَ بِهَا ((Lucy, 1992)). هَذَا المَنْظُورُ سَيُسَاعِدُنَا عَلَى تَفْسِيرِ كَيْفَ أَنَّ بِنْيَةَ الاشْتِقَاقِ العَرَبِيَّةَ "سَهَّلَتْ" نَشْأَةَ عَقْلِيَّةٍ قِيَاسِيَّةٍ، بَيْنَمَا "سَهَّلَتْ" بِنْيَةُ التَّرْكِيبِ الإِغْرِيقِيَّةُ نَشْأَةَ عَقْلِيَّةٍ تَصْنِيفِيَّةٍ.

- **نَظَرِيَّةُ الاسْتِعَارَةِ المَفْهُومِيَّةِ** (Conceptual Metaphor Theory):

تُشِيرُ هَذِهِ النَّظَرِيَّةُ، الَّتِي طَوَّرَهَا لَايكُوف وَجُونْسُون ((Lakoff & Johnson, 2008))، إِلَى أَنَّنَا نَفْهَمُ المَفَاهِيمَ المُجَرَّدَةَ (كَالزَّمَنِ وَالعَوَاطِفِ وَالأَفْكَارِ) مِنْ خِلَالِ اسْتِعَارَاتٍ مُتَجَذِّرَةٍ فِي تَجَارِبِنَا الحِسِّيَّةِ وَالجَسَدِيَّةِ. سَنَسْتَخْدِمُ هَذِهِ النَّظَرِيَّةَ لِنُبَيِّنَ كَيْفَ أَنَّ البِنْيَةَ اللُّغَوِيَّةَ نَفْسَهَا يُمْكِنُ أَنْ تُصْبِحَ "اسْتِعَارَةً مَفْهُومِيَّةً" كُبْرَى؛ فَثُنَائِيَّةُ "الأَصْلِ وَالفَرْعِ" فِي العَرَبِيَّةِ أَصْبَحَتْ هِيَ الاسْتِعَارَةَ الأَسَاسِيَّةَ لِفَهْمِ العَلَاقَةِ بَيْنَ النَّصِّ وَالحُكْمِ، وَبَيْنَ اللهِ وَالخَلْقِ.

2. عِلْمُ الأَعْصَابِ الإِدْرَاكِيُّ (Cognitive Neuroscience):

لِتَجَنُّبِ بَقَاءِ تَحْلِيلِنَا فِي المُسْتَوَى المَجَازِيِّ، سَنَسْعَى لِتَأْسِيسِ فَرَضِيَّاتِنَا عَلَى أُسُسٍ بَيُولُوجِيَّةٍ مُحْتَمَلَةٍ. وَسَنَعْتَمِدُ عَلَى مَبَادِئَ مُسْتَقَرَّةٍ فِي عِلْمِ الأَعْصَابِ، مِنْهَا:

- **المُرُونَةُ العَصَبِيَّةُ** (Neuroplasticity):

وَهِيَ قُدْرَةُ الدِّمَاغِ عَلَى تَغْيِيرِ بِنْيَتِهِ وَوَظَائِفِهِ اسْتِجَابَةً لِلتَّجْرِبَةِ المُتَكَرِّرَةِ (Kandel et al., 2013). هَذَا المَبْدَأُ يَسْمَحُ لَنَا بِالافْتِرَاضِ بِأَنَّ المُمَارَسَةَ اللُّغَوِيَّةَ اليَوْمِيَّةَ "تَنْحَتُ" الدَّوَائِرَ العَصَبِيَّةَ وَتُقَوِّي مَسَارَاتٍ بِعَيْنِهَا.

- **نَمُوذَجُ "الكَلِمَاتِ وَالقَوَاعِدِ"** (Words and Rules):

هَذَا النَّمُوذَجُ، الَّذِي طَوَّرَهُ بَاحِثُونَ مِثْلُ بِنْكَر وَأُولْمَان (Pinker, 2015; Ullman, 2004)، يُمَيِّزُ بَيْنَ طَرِيقَيْنِ عَصَبِيَّيْنِ لِمُعَالَجَةِ الصَّرْفِ: "طَرِيقُ الحِفْظِ" الَّذِي يَعْتَمِدُ عَلَى الذَّاكِرَةِ التَّصْرِيحِيَّةِ (لِلْكَلِمَاتِ الشَّاذَّةِ)، وَ"طَرِيقُ القَوَاعِدِ" الَّذِي يَعْتَمِدُ عَلَى الذَّاكِرَةِ الإِجْرَائِيَّةِ (لِتَطْبِيقِ القَوَاعِدِ القِيَاسِيَّةِ). سَنَسْتَخْدِمُ هَذَا النَّمُوذَجَ لِتَقْدِيمِ فَرَضِيَّةٍ مُفَصَّلَةٍ حَوْلَ كَيْفِيَّةِ تَأْثِيرِ العَرَبِيَّةِ (بِوَصْفِهَا لُغَةً تُهَيْمِنُ فِيهَا القَاعِدَةُ) وَالإِغْرِيقِيَّةِ (بِوَصْفِهَا لُغَةً هَجِينَةً بَيْنَ القَوَاعِدِ وَالاسْتِثْنَاءَاتِ) عَلَى تَطْوِيرِ هَذَيْنِ النِّظَامَيْنِ العَصَبِيَّيْنِ بِشَكْلٍ مُخْتَلِفٍ.

3. تَارِيخُ العُلُومِ وَالفَلْسَفَةِ المُقَارَنُ:

يُقَدِّمُ لَنَا هَذَا الحَقْلُ المَادَّةَ التَّارِيخِيَّةَ لِاخْتِبَارِ فَرَضِيَّاتِنَا. فَمِنْ خِلَالِ التَّحْلِيلِ المُقَارَنِ لِلْمُنْتَجَاتِ المَعْرِفِيَّةِ الكُبْرَى لِكِلْتَا الحَضَارَتَيْنِ (عِلْمُ أُصُولِ الفِقْهِ وَالمَنْطِقُ الأَرِسْطِيُّ)، يُمْكِنُنَا أَنْ نَرَى مَا إِذَا كَانَتِ "العَقْلِيَّاتُ" المُتَوَقَّعَةُ بِنَاءً عَلَى التَّحْلِيلِ اللُّغَوِيِّ تَتَطَابَقُ مَعَ الأَنْسَاقِ الفِكْرِيَّةِ الفِعْلِيَّةِ الَّتِي سَادَتْ.

المَنْهَجِيَّةُ المُتَّبَعَةُ: أَدَوَاتُ التَّحْلِيلِ

لِتَحْقِيقِ أَهْدَافِ هَذِهِ الدِّرَاسَةِ البَيْنِيَّةِ، سَنَعْتَمِدُ عَلَى مَنْهَجِيَّةٍ مُرَكَّبَةٍ

تَجْمَعُ بَيْنَ ثَلَاثَةِ مَنَاهِجَ مُتَكَامِلَةٍ:

1. المَنْهَجُ المُقَارَنُ العُضْوِيُّ-الوَظِيفِيُّ:

وَهُوَ مَنْهَجٌ نَقْتَرِحُهُ كَتَطْوِيرٍ لِلْمَنَاهِجِ المُقَارَنَةِ التَّقْلِيدِيَّةِ. فَهُوَ لَا يَقْتَصِرُ عَلَى وَصْفِ الفُرُوقِ البُنْيَوِيَّةِ الصُّورِيَّةِ بَيْنَ اللُّغَتَيْنِ، بَلْ يَرْبِطُ بَيْنَ البِنْيَةِ اللُّغَوِيَّةِ العَمِيقَةِ (عُضْوِيَّة/هَجِينَة) **وَوَظَائِفِهَا** المَعْرِفِيَّةِ وَالحَضَارِيَّةِ وَالهُوِيَّاتِيَّةِ. إِنَّهُ يَبْحَثُ عَنِ "الأَثَرِ" الَّذِي تَتْرُكُهُ البِنْيَةُ عَلَى الفِكْرِ.

2. المَنْهَجُ الهِيرْمِنُوطِيقِيُّ (التَّأْوِيلِيُّ):

يَسْتَحِيلُ فَهْمُ أَنْسَاقٍ فِكْرِيَّةٍ مُعَقَّدَةٍ كَعِلْمِ أُصُولِ الفِقْهِ أَوِ المَنْطِقِ الأَرِسْطِيِّ دُونَ "غَوْصٍ" تَأْوِيلِيٍّ عَمِيقٍ فِي نُصُوصِهَا التَّأْسِيسِيَّةِ. سَنَقُومُ بِتَحْلِيلٍ هِيرْمِنُوطِيقِيٍّ لِأَجْزَاءٍ مُخْتَارَةٍ مِنَ القُرْآنِ الكَرِيمِ، وَ"الرِّسَالَةِ" لِلشَّافِعِيِّ، وَ"الأُورْجَانُون" لِأَرِسْطُو. الهَدَفُ لَيْسَ فَقَطْ مَعْرِفَةَ "مَاذَا" تَقُولُ هَذِهِ النُّصُوصُ، بَلْ "كَيْفَ" تَقُولُهُ، أَيْ تَحْلِيلَ بِنْيَتِهَا الحِجَاجِيَّةِ وَأَدَوَاتِهَا الاسْتِدْلَالِيَّةِ.

3. مَنْهَجُ تَارِيخِ المَفَاهِيمِ (Begriffsgeschichte):

وَهُوَ مَنْهَجٌ تَارِيخِيٌّ يَهْتَمُّ بِتَتَبُّعِ تَطَوُّرِ المَفَاهِيمِ المِحْوَرِيَّةِ عَبْرَ الزَّمَنِ. سَنَسْتَخْدِمُ هَذَا المَنْهَجَ لِتَتَبُّعِ المَسَارِ الدَّلَالِيِّ لِمَفَاهِيمَ مِثْلِ: **"لُوغُوس"** (مِنَ "الْقَوْلِ" إِلَى "الْعَقْلِ" وَ"الْمَنْطِقِ")، وَ"قِيَاس" (مِنَ "الْقِيَاسِ" الحِسِّيِّ إِلَى "الْقِيَاسِ" الأُصُولِيِّ)، وَ"بَيَان" (مِنَ "الْوُضُوحِ" إِلَى "الْمَنْطِقِ"). هَذَا المَنْهَجُ يُضْفِي بُعْدًا تَارِيخِيًّا (Diachronic) عَلَى تَحْلِيلِنَا البُنْيَوِيِّ (Synchronic).

إِنَّ تَضَافُرَ هَذِهِ الأُطُرِ النَّظَرِيَّةِ وَالمَنَاهِجِ التَّحْلِيلِيَّةِ هُوَ مَا سَيُمَكِّنُنَا مِنْ بِنَاءِ حُجَّةٍ مُتَمَاسِكَةٍ وَمُتَعَدِّدَةِ الأَبْعَادِ، قَادِرَةٍ عَلَى الإِحَاطَةِ بِإِشْكَالِيَّةِ البَحْثِ المُعَقَّدَةِ.

الجُزْءُ الأَوَّلُ: المِعْمَارِيَّاتُ اللُّغَوِيَّةُ المُؤَسِّسَةُ

يَنْطَلِقُ هَذَا الجُزْءُ مِنْ فَرَضِيَّةٍ مَرْكَزِيَّةٍ مَفَادُهَا أَنَّ لِكُلِّ لِسَانٍ "مِعْمَارِيَّةً" دَاخِلِيَّةً عَمِيقَةً، لَا تُحَدِّدُ فَقَطْ قَوَاعِدَهُ الصَّرْفِيَّةَ وَالنَّحْوِيَّةَ، بَلْ تَرْسُمُ أَيْضًا "الخُطَّةَ الهَنْدَسِيَّةَ" (Architectural Blueprint) لِلْعَالَمِ المَفْهُومِيِّ الَّذِي يُمْكِنُ بِنَاؤُهُ مِنْ خِلَالِهِ. إِنَّ هَذِهِ المِعْمَارِيَّةَ المُؤَسِّسَةَ هِيَ الَّتِي تُوَجِّهُ "الأُسْلُوبَ الإِدْرَاكِيَّ" (Cognitive Style) لِحَضَارَةٍ مَا، وَتُحَدِّدُ طَبِيعَةَ الأَدَوَاتِ المَنْطِقِيَّةِ الَّتِي سَتُطَوِّرُهَا لِفَهْمِ الوُجُودِ. فِي هَذَا السِّيَاقِ، سَنَقُومُ بِتَشْرِيحِ مُقَارَنٍ لِمِعْمَارِيَّتَيْنِ لُغَوِيَّتَيْنِ مُتَبَايِنَتَيْنِ جِذْرِيًّا، شَكَّلَتَا اثْنَيْنِ مِنْ أَهَمِّ مَسَارَاتِ الفِكْرِ الإِنْسَانِيِّ.

سَيَتَنَاوَلُ **الفَصْلُ الأَوَّلُ** "المُحَرِّكَ التَّوْلِيدِيَّ العَرَبِيَّ"، حَيْثُ سَنُفَكِّكُ بِنْيَةَ اللِّسَانِ العَرَبِيِّ بِوَصْفِهَا نِظَامًا **"عُضْوِيًّا"**، يَنْمُو مِنْ دَاخِلِهِ، وَ"تَوْلِيدِيًّا"، يَعْتَمِدُ عَلَى آلِيَّاتِ الاشْتِقَاقِ لِيُنْتِجَ عَالَمًا مَفْهُومِيًّا **شَبَكِيًّا وَمُتَرَابِطًا**. هَذِهِ المِعْمَارِيَّةُ، كَمَا سَنَرَى، تَقُومُ عَلَى مَنْطِقِ "الوَصْلِ" وَ"الرَّدِّ إِلَى الأَصْلِ".

وَفِي المُقَابِلِ، سَيَتَنَاوَلُ **الفَصْلُ الثَّانِي** "المُحَرِّكَ التَّرْكِيبِيَّ الإِغْرِيقِيَّ"، حَيْثُ سَنُحَلِّلُ بِنْيَةَ اللِّسَانِ الإِغْرِيقِيِّ كَنِظَامٍ **"هَجِينٍ"**، تَشَكَّلَ عَبْرَ طَبَقَاتٍ مِنَ الاقْتِرَاضِ، وَ"تَجْمِيعِيٍّ"، يَعْتَمِدُ عَلَى اللَّصْقِ وَالتَّرْكِيبِ المَزْجِيِّ. هَذِهِ المِعْمَارِيَّةُ، كَمَا سَنُبَيِّنُ، تُؤَسِّسُ لِعَالَمٍ مَفْهُومِيٍّ "كُتَلِيٍّ" **وَمُجَزَّأٍ**، وَتَقُومُ عَلَى مَنْطِقِ "الفَصْلِ" وَ"التَّصْنِيفِ".

إِنَّ هَذِهِ المُقَارَنَةَ بَيْنَ "مِعْمَارِيَّةِ الشَّبَكَةِ" وَ"مِعْمَارِيَّةِ الكُتَلِ" لَيْسَتْ مُجَرَّدَ تَحْلِيلٍ لُغَوِيٍّ تَقْنِيٍّ، بَلْ هِيَ المَدْخَلُ الأَسَاسِيُّ لِفَهْمِ كَيْفَ وَلِمَاذَا سَلَكَتْ هَاتَانِ الحَضَارَتَانِ المِحْوَرِيَّتَانِ مَسَارَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ فِي بِنَاءِ عُلُومِهِمَا وَهُوِيَّاتِهِمَا وَأَنْسَاقِهِمَا المَنْطِقِيَّةِ.

الفَصْلُ الأَوَّلُ: المُحَرِّكُ التَّوْلِيدِيُّ العَرَبِيُّ

تَشْرِيحُ بِنْيَةِ الجَذْرِ وَالوَزْنِ وَالإِعْرَابِ كَأُسُسٍ لِعَالَمٍ مَفْهُومِيٍّ مُتَرَابِطٍ

مُقَدِّمَةٌ: فِي تَشْرِيحِ "مَصْدَرِ" اللُّغَةِ

يَنْطَلِقُ هَذَا الفَصْلُ التَّأْسِيسِيُّ مِنْ سُؤَالٍ جَوْهَرِيٍّ:

مَا هُوَ "المَصْدَرُ" الَّذِي تَسْتَمِدُّ مِنْهُ لُغَةٌ مَا قُوَّتَهَا التَّعْبِيرِيَّةَ وَقُدْرَتَهَا عَلَى بِنَاءِ عَالَمِهَا المَفْهُومِيِّ؟

هَلْ هُوَ مُجَرَّدُ تَرَاكُمٍ تَارِيخِيٍّ لِمُفْرَدَاتٍ مُقْتَرَضَةٍ وَمُجَمَّعَةٍ، أَمْ أَنَّهُ "مُحَرِّكٌ" دَاخِلِيٌّ مُنْتِجٌ يَمتَلِكُ القُدْرَةَ عَلَى التَّوْلِيدِ الذَّاتِيِّ وَالمُسْتَدَامِ؟

يَهْدِفُ هَذَا الفَصْلُ إِلَى تَشْرِيحِ "الشِّفْرَةِ المَصْدَرِيَّةِ" (Source Code) لِلِّسَانِ العَرَبِيِّ، مُبَرْهِنًا عَلَى أَنَّ عَبْقَرِيَّتَهُ تَنْبُعُ مِنْ كَوْنِهِ يَنْتَمِي إِلَى النَّوْعِ الثَّانِي. فَعَلَى عَكْسِ اللُّغَاتِ الَّتِي تَبْنِي مُعْجَمَهَا بِشَكْلٍ أَسَاسِيٍّ عَبْرَ "التَّجْمِيعِ" وَ"الاقْتِرَاضِ"، تَمْتَلِكُ العَرَبِيَّةُ "**مُحَرِّكًا تَوْلِيدِيًّا**" (Generative Engine) دَاخِلِيًّا وقَوِيًّا وَشَدِيدَ الانْتِظَامِ.

تَقُومُ أُطْرُوحَتُنَا عَلَى أَنَّ هَذَا المُحَرِّكَ يَعْتَمِدُ عَلَى تَكَامُلِ ثَلَاثَةِ مُكَوِّنَاتٍ أَسَاسِيَّةٍ تُشَكِّلُ "عَتَادَهُ" وَ"بَرْمَجِيَّاتِهِ":

1. **الجَذْرُ** بِوَصْفِهِ "النَّوَاةَ الدَّلَالِيَّةَ" الثَّابِتَةَ،
2. وَ**الوَزْنُ** بِوَصْفِهِ "القَالَبَ الصَّرْفِيَّ" الوَظِيفِيَّ،
3. وَ**الإِعْرَابُ** بِوَصْفِهِ "الغِرَاءَ التَّرْكِيبِيَّ" الَّذِي يَضْمَنُ تَمَاسُكَ البِنَاءِ النَّحْوِيِّ.

سَيَقُومُ هَذَا الفَصْلُ بِتَحْلِيلِ كُلِّ مُكَوِّنٍ مِنْ هَذِهِ المُكَوِّنَاتِ الثَّلَاثَةِ بِتَعَمُّقٍ، لِيُوَضِّحَ كَيْفَ تَتَضَافَرُ لِتَخْلُقَ نِظَامًا "عُضْوِيًّا" وَ"تَوْلِيدِيًّا" يُؤَسِّسُ لِعَالَمٍ مَفْهُومِيٍّ **شَبَكِيٍّ وَمُتَرَابِطٍ**، تَكُونُ فِيهِ العَلَاقَاتُ بَيْنَ المَعَانِي شَفَّافَةً وَمَنْطِقِيَّةً. هَذَا التَّحْلِيلُ سَيُؤَسِّسُ الأَرْضِيَّةَ اللَّازِمَةَ لِلْمُقَارَنَاتِ اللَّاحِقَةِ مَعَ النَّمَاذِجِ اللُّغَوِيَّةِ الهَجِينَةِ.

الجَذْرُ: نَوَاةُ المَعْنَى وَمِرْسَاةُ التَّمَاسُكِ الدَّلَالِيِّ

يَقَعُ فِي قَلْبِ المُحَرِّكِ التَّوْلِيدِيِّ العَرَبِيِّ مُكَوِّنٌ فَرِيدٌ وَأَصِيلٌ: **الجَذْرُ الثُّلَاثِيُّ**. إِنَّ فَهْمَ طَبِيعَةِ الجَذْرِ هُوَ المِفْتَاحُ لِفَهْمِ الكَثِيرِ مِنْ خَصَائِصِ اللِّسَانِ العَرَبِيِّ وَالعَقْلِيَّةِ الَّتِي يُشَكِّلُهَا. فَالْجَذْرُ لَيْسَ مُجَرَّدَ "أَصْلٍ" تَارِيخِيٍّ لِلْكَلِمَةِ، بَلْ هُوَ وَحْدَةٌ حَيَّةٌ وَفَاعِلَةٌ فِي حَاضِرِ اللُّغَةِ.

تَشْرِيحُ الجَذْرِ العَرَبِيِّ: بَيْنَ البِنْيَةِ الصَّامِتَةِ وَالطَّاقَةِ الدَّلَالِيَّةِ

يَتَمَيَّزُ الجَذْرُ العَرَبِيُّ بِكَوْنِهِ النَّوَاةَ الصُّلْبَةَ الَّتِي يَقُومُ عَلَيْهَا المُعْجَمُ بِأَكْمَلِهِ، وَهُوَ مَصْدَرُ قُوَّتِهِ التَّوْلِيدِيَّةِ وَتَمَاسُكِهِ الدَّلَالِيِّ. وَلِفَهْمِ آلِيَّةِ عَمَلِهِ، يَجِبُ تَفْكِيكُ طَبِيعَتِهِ إِلَى ثَلَاثِ خَصَائِصَ مُتَكَامِلَةٍ: **ازْدِوَاجِيَّةُ البِنْيَةِ، وَالطَّبِيعَةُ المُجَرَّدَةُ، وَالإِمْكَانِيَّةُ التَّوْلِيدِيَّةُ المُرَشَّحَةُ**.

1. ازْدِوَا جِيَّةُ البِنْيَةِ: الفَصْلُ بَيْنَ حَامِلِ المَعْنَى وَحَامِلِ الوَظِيفَةِ

تَقُومُ عَبْقَرِيَّةُ الاشْتِقَاقِ العَرَبِيِّ عَلَى "تَقْسِيمِ عَمَلٍ" دَقِيقٍ بَيْنَ نَوْعَيْنِ مِنَ الأَصْوَاتِ: الصَّوَامِتُ وَالصَّوَائِتُ.

- **الهَيْكَلُ العَظْمِيُّ الثَّابِتُ: الجَذْرُ الصَّامِتُ (حَامِلُ المَعْنَى)** الرُّكْنُ الأَوَّلُ وَالأَسَاسِيُّ هُوَ **الجَذْرُ**، وَهُوَ هَيْكَلٌ عَظْمِيٌّ يَتَكَوَّنُ غَالِبًا مِنْ ثَلَاثَةِ **صَوَامِتَ** (Consonants). هَذِهِ الصَّوَامِتُ هِيَ الحَامِلُ المُسْتَقِرُّ لِـ **"المَعْنَى المِعْجَمِيِّ"** (Lexical Meaning) الأَصْلِيِّ. فَالْجَذْرُ (ك-ت-ب)، عَلَى سَبِيلِ المِثَالِ، يَحْمِلُ الشِّحْنَةَ الدَّلَالِيَّةَ الخَامَ المُرْتَبِطَةَ بِفِعْلِ "الكِتَابَةِ".

- **النَّسِيجُ المَفاصِلِيُّ المُتَحَرِّكُ: الوَزْنُ الصَّائِتِيُّ (حَامِلُ الوَظِيفَةِ)** أَمَّا الرُّكْنُ الثَّانِي فَهُوَ **الوَزْنُ** (Pattern)، وَيَتَكَوَّنُ أَسَاسًا مِنْ هَيْكَلٍ مِنَ **الصَّوَائِتِ العشرة** (Vowels): الفتحة (أو الألف) والضمة (أو الواو) والكسرة (أو الياء) والسكون وثلاثية التنوين وثلاثية التشديد). هَذِهِ الصَّوَائِتُ، مُجْتَمِعَةً فِي قَوَالِبَ مُحَدَّدَةٍ، هِيَ الحَامِلُ المُتَحَرِّكُ لِـ **"المَعْنَى الصَّرْفِيِّ وَالنَّحْوِيِّ"** (Morphological and Grammatical Meaning). فَتَغْيِيرُ الصَّوَائِتِ فِي الجَذْرِ (ع-ل-م) يُغَيِّرُ وَظِيفَةَ الكَلِمَةِ تَمَامًا:
  - **عَلِمَ (a-i-a):** فِعْلٌ مَاضٍ.
  - **عَلَّمَ (a-a-a مع تشديد العين):** فِعْلٌ مَاضٍ مُتَعَدٍّ (يُفِيدُ السَّبَبِيَّةَ).
  - **عِلْمٌ (i-Ø):** مَصْدَرٌ (اسْمُ الفِعْلِ المُجَرَّدِ).

2. الجَذْرُ كَطَاقَةٍ دَلَالِيَّةٍ كَامِنَةٍ

الخَاصِّيَّةُ الثَّالِثَةُ، وَهِيَ الأَعْمَقُ فَلْسَفِيًّا،

هِيَ أَنَّ الجَذْرَ كَيَانٌ **مُجَرَّدٌ** (Abstract). فَهُوَ غَيْرُ قَابِلٍ لِلنُّطْقِ بِمُفْرَدِهِ كَكَلِمَةٍ مُسْتَقِلَّةٍ. الجَذْرُ (ك-ت-ب) لَيْسَ شَيْئًا، إِنَّهُ مُجَرَّدُ فِكْرَةٍ. إِنَّهُ **"طَاقَةٌ دَلَالِيَّةٌ كَامِنَةٌ"** (Latent Semantic Potential) تَحْتَاجُ إِلَى "قَالَبٍ" (وَزْنٍ) لِتَتَجَلَّى فِي العَالَمِ المَنْطُوقِ وَتَتَحَوَّلَ إِلَى كَلِمَةٍ مَلْمُوسَةٍ. هَذِهِ الطَّبِيعَةُ المُجَرَّدَةُ هِيَ مَصْدَرُ قُوَّتِهِ الهَائِلَةِ، فَهِيَ تَجْعَلُهُ قَابِلًا لِلتَّشَكُّلِ فِي صُوَرٍ لَا حَصْرَ لَهَا، وَتَرْفَعُ اللِّسَانَ العَرَبِيَّ مِنْ مُجَرَّدِ أَدَاةٍ تَسْمِيَةٍ لِلْأَشْيَاءِ إِلَى نِظَامٍ قَادِرٍ عَلَى تَجْسِيدِ المَعَانِي المُجَرَّدَةِ فِي بِنْيَةٍ شِبْهِ رِيَاضِيَّةٍ.

3. مَصْفُوفَةُ الإِمْكَانِ: بَيْنَ الحِسَابِ الرِّيَاضِيِّ وَالذَّوْقِ اللُّغَوِيِّ

تَقُودُنَا هَذِهِ البِنْيَةُ إِلَى فَهْمِ القُدْرَةِ التَّوْلِيدِيَّةِ الهَائِلَةِ لِلْعَرَبِيَّةِ. بِالاعْتِمَادِ عَلَى وُجُودِ 28 **صَامِتًا**، فَإِنَّ العَدَدَ الأَقْصَى لِلْجُذُورِ الثُّلَاثِيَّةِ المُمْكِنَةِ نَظَرِيًّا هُوَ مَا يَقْرُبُ مِنْ **اثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ أَلْفَ جَذْرٍ مُحْتَمَلٍ** (28^3). وَيَصِلُ العَدَدُ لِلْجُذُورِ الرُّبَاعِيَّةِ إِلَى أَكْثَرَ مِنْ **سِتِّمِائَةِ أَلْفٍ** (28^4). هَذِهِ "مَصْفُوفَةُ إِمْكَانٍ" هَائِلَةٌ.

إِضَافَةً إِلَى ذَلِكَ، فَإِنَّ كُلَّ جَذْرٍ مُسْتَعْمَلٍ يُمْكِنُ أَنْ يُنْتِجَ مِئَاتِ الكَلِمَاتِ مِنْ خِلَالِ تَطْبِيقِ الأَوْزَانِ الصَّرْفِيَّةِ عَلَيْهِ. بِهَذَا المَعْنَى، تَكُونُ الإِمْكَانِيَّةُ التَّوْلِيدِيَّةُ لِلْعَرَبِيَّةِ لَيْسَتْ لَانِهَائِيَّةً بِمَعْنَى الكَلِمَةِ الرِّيَاضِيِّ، بَلْ هِيَ **نِظَامٌ مَفْتُوحٌ وَقَابِلٌ لِلتَّوَسُّعِ** بِشَكْلٍ يَكَادُ يَكُونُ لَا نِهَائِيًّا عَمَلِيًّا، قَادِرٌ عَلَى اسْتِيعَابِ أَيِّ مَفْهُومٍ جَدِيدٍ.

وَلَكِنَّ العَبْقَرِيَّةَ الحَقِيقِيَّةَ لَا تَكْمُنُ فِي هَذَا الكَمِّ الرِّيَاضِيِّ، بَلْ فِي "المِرْشَحِ" الَّذِي يُطَبَّقُ عَلَيْهِ. فَالمُعْجَمُ العَرَبِيُّ الفِعْلِيُّ لَا يَسْتَخْدِمُ إِلَّا جُزْءًا صَغِيرًا جِداً مِنْ هَذِهِ الاحْتِمَالَاتِ. وَالسَّبَبُ يَعُودُ إِلَى **قَوَانِينِ ائْتِلَافِ الحُرُوفِ**

الَّتِي أَصَّلَهَا عُلَمَاءٌ كَالْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ ((**الفراهيدي**, 2003)) وَسِيبَوَيْهِ ((**سيبويه**, 1988)) وابْنِ جِنّيّ ((**ابن جنّي**, 1999))، الَّتِي تَمْنَعُ تَجَاوُرَ الأَصْوَاتِ المُتَنَافِرَةِ (كَاجْتِمَاعِ حَرْفَيْنِ حَلْقِيَّيْنِ مَثَلًا). هَذَا "المِرْشَحُ الصَّوْتِيُّ"، المَبْنِيُّ عَلَى **الذَّوْقِ اللُّغَوِيِّ** وَسُهُولَةِ النُّطْقِ، هُوَ الَّذِي يَضْمَنُ أَنَّ الجُذُورَ المُسْتَعْمَلَةَ هِيَ "الأَجْمَلُ وَالأَفْضَلُ وَالأَدَقُّ" صَوْتِيًّا ((**حسان**, 1994); (Carter, 2004); (Versteegh, 1997)).

وَظِيفَةُ الجَذْرِ فِي تَحْقِيقِ التَّمَاسُكِ الدَّلَالِيِّ:

إِنَّ الوَظِيفَةَ المَعْرِفِيَّةَ الأَهَمَّ لِلْجَذْرِ هِيَ تَحْقِيقُ **"التَّمَاسُكِ الدَّلَالِيِّ"** (Semantic Coherence). فَبِاعْتِبَارِهِ "مِرْسَاةً" دَلَالِيَّةً ثَابِتَةً، فَإِنَّهُ يَرْبِطُ عَائِلَةً كَامِلَةً مِنَ المُفْرَدَاتِ وَيَجْعَلُ العَلَاقَةَ بَيْنَهَا "شَفَّافَةً". لِنَتَأَمَّلْ مِثَالَ الجَذْرِ **(ع-ق-ل)**، الَّذِي يَدُورُ حَوْلَ مَعْنًى "الرَّبْطِ وَالحَبْسِ وَالمَنْعِ". هَذِهِ النَّوَاةُ الدَّلَالِيَّةُ الوَاحِدَةُ تُوَلِّدُ "شَبَكَةً" كَامِلَةً مِنَ المَفَاهِيمِ الَّتِي تَظَلُّ مَشْدُودَةً إِلَى هَذَا الأَصْلِ:

- **عَقَلَ:** الفِعْلُ الأَصْلِيُّ (رَبَطَ).
- **عِقَالٌ:** اسْمُ الآلَةِ (الحَبْلُ الَّذِي يُرْبَطُ بِهِ).
- **عَقْلٌ:** المَصْدَرُ، ثُمَّ اسْمٌ لِلْقُوَّةِ الَّتِي تَرْبِطُ الإِنْسَانَ وَتَمْنَعُهُ مِنَ التَّهَوُّرِ.
- **عَاقِلٌ:** اسْمُ الفَاعِلِ (مَنْ يَمْتَلِكُ هَذِهِ القُوَّةَ).
- **مَعْقُولٌ:** اسْمُ المَفْعُولِ (مَا يُمْكِنُ إِدْرَاكُهُ وَرَبْطُهُ بِهَذِهِ القُوَّةِ).
- **اعْتَقَلَ:** فِعْلٌ عَلَى وَزْنِ "افْتَعَلَ" يَدُلُّ عَلَى "اتِّخَاذِ" فِعْلِ الحَبْسِ.
- **مُعْتَقَلٌ:** اسْمُ المَكَانِ أَوِ المَفْعُولِ مِنَ "اعْتَقَلَ".

إِنَّ هَذِهِ الشَّبَكَةَ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ تَجْمِيعٍ لِكَلِمَاتٍ مُتَشَابِهَةٍ، بَلْ هِيَ "نَسَقٌ مَعْرِفِيٌّ" مُتَرَابِطٌ يُرَسِّخُ فِي وَعْيِ المُتَكَلِّمِ أَنَّ "العَقْلَ" فِي جَوْهَرِهِ هُوَ فِعْلُ "ضَبْطٍ وَرَبْطٍ"، وَلَيْسَ مُجَرَّدَ تَخْلِيلٍ مُجَرَّدٍ. وَقَدْ كَانَ **ابْنُ جِنِّي** ((ابن جنّي, 1999)) مِنْ أَعْمَقِ مَنْ تَأَمَّلُوا فِي هَذِهِ العَبْقَرِيَّةِ، حَيْثُ رَأَى فِي الاشْتِقَاقِ دَلِيلًا عَلَى حِكْمَةِ اللُّغَةِ وَمَنْطِقِهَا الدَّاخِلِيِّ، وَأَنَّهُ يُمَثِّلُ "مُتْعَةً لِلنَّفْسِ" لِمَا فِيهِ مِنْ اكْتِشَافٍ لِهَذِهِ العَلَائِقِ الخَفِيَّةِ. هَذَا التَّمَاسُكُ يَجْعَلُ العَالَمَ المَفْهُومِيَّ لِلْعَرَبِيَّةِ "عَالَمًا شَبَكِيًّا"، تَتَّصِلُ فِيهِ كُلُّ الأَجْزَاءِ بِبَعْضِهَا وَبِالْمَرْكَزِ، عَلَى عَكْسِ العَوَالِمِ المَفْهُومِيَّةِ "الجُزُرِيَّةِ" لِلُّغَاتِ الَّتِي تَعْتَمِدُ عَلَى الاقْتِرَاضِ.

الوَزْنُ: مَصْنَعُ المَفَاهِيمِ وَقَالَبُ الدِّقَّةِ الصَّرْفِيَّةِ

إِذَا كَانَ الجَذْرُ هُوَ "المَادَّةَ الخَامَ" لِلْمَعْنَى، فَإِنَّ **نِظَامَ الوَزْنِ الصَّرْفِيِّ** (The Morphological Pattern System) هُوَ "المَصْنَعُ" الَّذِي يَقُومُ بِتَشْكِيلِ هَذِهِ المَادَّةِ وَتَحْوِيلِهَا إِلَى مُنْتَجَاتٍ مَفْهُومِيَّةٍ دَقِيقَةٍ وَمُتَنَوِّعَةٍ. إِنَّ الوَزْنَ فِي العَرَبِيَّةِ لَيْسَ مُجَرَّدَ هَيْكَلٍ صَوْتِيٍّ، بَلْ هُوَ **"دَالٌّ صَرْفِيٌّ"** (Morphological Signifier) مُسْتَقِلٌّ يَحْمِلُ وَظِيفَةً دَلَالِيَّةً مُجَرَّدَةً وَمُطَّرِدَةً تُضَافُ إِلَى مَعْنَى الجَذْرِ، وَهُوَ مَا يُمَثِّلُ قِمَّةَ الاقْتِصَادِ وَالدِّقَّةِ فِي آنٍ وَاحِدٍ.

المِيزَانُ الصَّرْفِيُّ كَنِظَامٍ قِيَاسِيٍّ: أَدْرَكَ النُّحَاةُ العَرَبُ أَنَّ هَذَا النِّظَامَ يَتَّسِمُ بِالانْتِظَامِ وَالقِيَاسِيَّةِ، فَابْتَكَرُوا **"المِيزَانَ الصَّرْفِيَّ"** بِاسْتِخْدَامِ الجَذْرِ **(ف-ع-ل)** كَمِعْيَارٍ لِقِيَاسِ وَوَصْفِ جَمِيعِ الأَوْزَانِ الأُخْرَى. هَذَا المِيزَانُ لَيْسَ أَدَاةً وَصْفِيَّةً فَحَسْبُ، بَلْ هُوَ تَجْسِيدٌ لِفِكْرَةِ أَنَّ اللُّغَةَ نِظَامٌ عَقْلَانِيٌّ تَحْكُمُهُ قَوَانِينُ مُطَّرِدَةٌ. وَكَمَا يُشِيرُ **تَمَّام حَسَّان** ((حسان, 1994)) فِي تَحْلِيلِهِ البُنْيَوِيِّ، فَإِنَّ هَذَا النِّظَامَ يَقُومُ عَلَى رَبْطِ "المَبْنَى" (الشَّكْلُ الصَّرْفِيُّ) بِـ "المَعْنَى" (الوَظِيفَةُ الدَّلَالِيَّةُ) بِشَكْلٍ مُنْتَظِمٍ، مِمَّا يَجْعَلُ النِّظَامَ بِأَكْمَلِهِ "شَفَّافًا" وَقَابِلًا لِلتَّنَبُؤِ.

الأَوْزَانُ كَأَدَوَاتٍ لِصِنَاعَةِ الفُرُوقِ: تَتَجَلَّى قُوَّةُ هَذَا "المَصْنَعِ" فِي شَبَكَةِ أَوْزَانِ الأَفْعَالِ المُزِيدَةِ، حَيْثُ يُضِيفُ كُلُّ وَزْنٍ بُعْدًا دَلَالِيًّا جَدِيدًا عَلَى الفِعْلِ الأَصْلِيِّ. لِنَأْخُذْ مِثَالَ الجَذْرِ **(ع-م-ل)**:

- **عَمِلَ (فَعَلَ):** مُجَرَّدُ حُدُوثِ الفِعْلِ.
- **عَامَلَ (فَاعَلَ):** يَدُلُّ عَلَى المُشَارَكَةِ، أَيِ الفِعْلُ بَيْنَ طَرَفَيْنِ.
- **اعْتَمَلَ (افْتَعَلَ):** يَدُلُّ عَلَى اتِّخَاذِ الفِعْلِ وَالاجْتِهَادِ فِيهِ لِصَالِحِ الذَّاتِ.
- **اسْتَعْمَلَ (اسْتَفْعَلَ):** يَدُلُّ عَلَى الطَّلَبِ أَوِ الاتِّخَاذِ.
- **تَعَامَلَ (تَفَاعَلَ):** يَدُلُّ عَلَى المُشَارَكَةِ المُتَبَادَلَةِ.

إِنَّ هَذِهِ القُدْرَةَ عَلَى التَّمْيِيزِ الدَّقِيقِ بَيْنَ ظِلَالِ المَعْنَى المُخْتَلِفَةِ مِنْ خِلَالِ تَغْيِيرَاتٍ صَرْفِيَّةٍ مُنْتَظِمَةٍ هِيَ مَا جَعَلَ العَرَبِيَّةَ لُغَةً ذَاتَ قُدْرَةٍ هَائِلَةٍ عَلَى صِيَاغَةِ المُصْطَلَحَاتِ الفِقْهِيَّةِ وَالفَلْسَفِيَّةِ بِدِقَّةٍ. فَالْفَرْقُ بَيْنَ "الإِسْلَامِ" وَ"الاسْتِسْلَامِ" لَيْسَ فَرْقًا فِي الحُرُوفِ فَحَسْبُ، بَلْ هُوَ فَرْقٌ فِي الوَزْنِ يَنْتُجُ عَنْهُ فَرْقٌ دَقِيقٌ فِي المَعْنَى. وَقَدْ تَمَّ تَحْلِيلُ هَذِهِ الأَوْزَانِ بِتَفْصِيلٍ دَقِيقٍ فِي أَعْمَالِ النُّحَاةِ الغَرْبِيِّينَ الكِلَاسِيكِيَّةِ أَيْضًا، كَمَا فِي قَوَاعِدِ رَايْت ((Wright et al., 2011)).

الإِعْرَابُ: غِرَاءُ التَّرْكِيبِ وَمُحَرِّرُ البَلَاغَةِ

يَكْتَمِلُ "المُحَرِّكُ التَّوْلِيدِيُّ" بِالرُّكْنِ الثَّالِثِ وَالأَخِيرِ، وَهُوَ **نِظَامُ الإِعْرَابِ**. فَإِذَا كَانَ الجَذْرُ وَالوَزْنُ يَعْمَلَانِ عَلَى مُسْتَوَى "الكَلِمَةِ"، فَإِنَّ الإِعْرَابَ يَعْمَلُ عَلَى مُسْتَوَى "الجُمْلَةِ"، وَيَقُومُ بِوَظِيفَتَيْنِ مُتَكَامِلَتَيْنِ:

أَوَّلًا، الإِعْرَابُ كَضَامِنٍ لِلتَّمَاسُكِ النَّحْوِيِّ:

يَعْمَلُ الإِعْرَابُ كَـ "غِرَاءٍ تَرْكِيبِيٍّ" يَضْمَنُ الوُضُوحَ الوَظِيفِيَّ لِكُلِّ كَلِمَةٍ دَاخِلَ الجُمْلَةِ. فَمِنْ خِلَالِ عَلَامَاتِهِ، يُعْلِنُ الإِعْرَابُ بِشَكْلٍ لَا لَبْسَ فِيهِ عَنِ العَلَاقَاتِ المَنْطِقِيَّةِ بَيْنَ أَجْزَاءِ الجُمْلَةِ (مَنْ هُوَ الفَاعِلُ، وَمَنْ هُوَ المَفْعُولُ)، وَهَذَا يَحْمِي الخِطَابَ مِنَ الغُمُوضِ وَيَجْعَلُهُ قَادِرًا عَلَى حَمْلِ مَعَانٍ تَشْرِيعِيَّةٍ وَعَقَدِيَّةٍ دَقِيقَةٍ.

ثَانِيًا، الإِعْرَابُ كَمُحَرِّرٍ لِلْبَلَاغَةِ:

إِنَّ هَذَا الوُضُوحَ الوَظِيفِيَّ الَّذِي يَكْفَلُهُ الإِعْرَابُ يُؤَدِّي بِدَوْرِهِ إِلَى **"تَحْرِيرِ" تَرْتِيبِ الكَلِمَاتِ** مِنْ قَيْدِ الدَّلَالَةِ عَلَى الوَظِيفَةِ النَّحْوِيَّةِ، وَيَفْتَحُ البَابَ أَمَامَ اسْتِخْدَامِ التَّرْتِيبِ لِأَغْرَاضٍ بَلَاغِيَّةٍ عُلْيَا كَالتَّأْكِيدِ وَالتَّخْصِيصِ. هَذِهِ الفِكْرَةُ هِيَ جَوْهَرُ **"نَظَرِيَّةِ النَّظْمِ"** عِنْدَ الإِمَامِ **عَبْدِ القَاهِرِ الجُرْجَانِيِّ** ((**الجرجاني**, 1984))، الَّذِي رَأَى أَنَّ المَعْنَى الحَقِيقِيَّ يَتَوَلَّدُ مِنْ هَذَا "النَّظْمِ" وَالعَلَاقَاتِ التَّرْكِيبِيَّةِ بَيْنَ الكَلِمَاتِ، لَا مِنَ الكَلِمَاتِ المُفْرَدَةِ.

إِنَّ هَذَا الوُضُوحَ الوَظِيفِيَّ الَّذِي يَكْفَلُهُ الإِعْرَابُ يُؤَدِّي بِدَوْرِهِ إِلَى "تَحْرِيرِ" تَرْتِيبِ الكَلِمَاتِ مِنْ قَيْدِ الدَّلَالَةِ عَلَى الوَظِيفَةِ النَّحْوِيَّةِ، وَيَفْتَحُ البَابَ أَمَامَ اسْتِخْدَامِ التَّرْتِيبِ لِأَغْرَاضٍ بَلَاغِيَّةٍ عُلْيَا كَالتَّأْكِيدِ وَالتَّخْصِيصِ. هَذِهِ الفِكْرَةُ هِيَ جَوْهَرُ **"نَظَرِيَّةِ النَّظْمِ"** عِنْدَ الإِمَامِ عَبْدِ القَاهِرِ الجُرْجَانِيِّ ((**الجرجاني**, 1984))، الَّذِي رَأَى أَنَّ المَعْنَى الحَقِيقِيَّ يَتَوَلَّدُ مِنْ هَذَا "النَّظْمِ" وَالعَلَاقَاتِ التَّرْكِيبِيَّةِ بَيْنَ الكَلِمَاتِ، لَا مِنَ الكَلِمَاتِ المُفْرَدَةِ.

لِتَوْضِيحِ هَذِهِ المُرُونَةِ الهَائِلَةِ، لِنَأْخُذْ جُمْلَةً بَسِيطَةً مِثْلَ:

أَعْطَى مُحَمَّدٌ خَالِدًا كِتَابًا.

تَتَكَوَّنُ هَذِهِ الجُمْلَةُ مِنْ أَرْبَعَةِ عَنَاصِرَ: فِعْلٍ (**أَعْطَى**)، وَفَاعِلٍ (**مُحَمَّدٌ**)، وَمَفْعُولٍ بِهِ أَوَّلَ (**خَالِدًا**)، وَمَفْعُولٍ بِهِ ثَانٍ (**كِتَابًا**).

مِنَ النَّاحِيَةِ الرِّيَاضِيَّةِ البَحْتَةِ، يُمْكِنُ تَرْتِيبُ هَذِهِ العَنَاصِرِ الأَرْبَعَةِ فِي **أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ** (4! = 24) صُورَةً مُخْتَلِفَةً. مَا يَجْعَلُ اللِّسَانَ العَرَبِيَّ فَرِيدًا هُوَ أَنَّ عَدَدًا كَبِيرًا مِنْ هَذِهِ التَّرْتِيبَاتِ يَبْقَى صَحِيحًا نَحْوِيًّا وَمَفْهُومًا، وَذَلِكَ بِفَضْلِ **الإِعْرَابِ**. فَعَلَامَةُ الرَّفْعِ (**الضَّمَّةُ**) عَلَى "مُحَمَّدٌ" تَضْمَنُ أَنَّهُ الفَاعِلُ أَيْنَمَا وَقَعَ فِي الجُمْلَةِ، وَعَلَامَتَا النَّصْبِ (**الفَتْحَةُ**) عَلَى "خَالِدًا" وَ"**كِتَابًا**" تَضْمَنَانِ أَنَّهُمَا المَفْعُولَانِ.

الأَهَمُّ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ كُلَّ تَرْتِيبٍ جَدِيدٍ لَا يُكَرِّرُ المَعْنَى الأَصْلِيَّ، بَلْ يُنْتِجُ **ظِلًّا دَلَالِيًّا جَدِيدًا** أَوْ مَعْنًى بَلَاغِيًّا إِضَافِيًّا يَتَعَلَّقُ بِالتَّأْكِيدِ وَالاهْتِمَامِ، كَمَا يُوَضِّحُ الجَدْوَلُ التَّالِي:

التَّرْكِيبُ (النَّظْمُ)	**الدَّلَالَةُ البَلَاغِيَّةُ (المَعْنَى الإِضَافِيُّ)**
أَعْطَى مُحَمَّدٌ خَالِدًا كِتَابًا.	**الصِّيغَةُ الأَصْلِيَّةُ** (VSOO): تَرْكِيزٌ عَلَى حَدَثِ الإِعْطَاءِ نَفْسِهِ. الجُمْلَةُ إِخْبَارِيَّةٌ مُحَايِدَةٌ.
مُحَمَّدٌ أَعْطَى خَالِدًا كِتَابًا.	(SVOO): تَقْدِيمُ الفَاعِلِ يُفِيدُ **التَّرْكِيزَ عَلَى الفَاعِلِ**. الجُمْلَةُ تُجِيبُ عَنْ سُؤَالٍ مِثْلَ: "مَنْ أَعْطَى خَالِدًا كِتَابًا؟".
خَالِدًا أَعْطَى مُحَمَّدٌ كِتَابًا.	(OVSO): تَقْدِيمُ المَفْعُولِ بِهِ "خَالِدًا" يُفِيدُ **الحَصْرَ وَالتَّخْصِيصَ**. المَعْنَى: أَعْطَى خَالِدًا بِالتَّحْدِيدِ، لَا أَحَدًا غَيْرَهُ.
كِتَابًا أَعْطَى مُحَمَّدٌ خَالِدًا.	(OVSO): تَقْدِيمُ المَفْعُولِ بِهِ "كِتَابًا" يُفِيدُ **الحَصْرَ وَالتَّخْصِيصَ**. المَعْنَى: أَعْطَاهُ كِتَابًا بِالتَّحْدِيدِ، لَا شَيْئًا آخَرَ.

خَالِدًا كِتَابًا أَعْطَى مُحَمَّدٌ.	(OOVS): تَقْدِيمُ المَفْعُولَيْنِ مَعًا يُفِيدُ أَقْصَى دَرَجَاتِ **الاهْتِمَامِ وَالتَّأْكِيدِ** عَلَى مَا تَمَّ إِعْطَاؤُهُ وَلِمَنْ تَمَّ الإِعْطَاءُ.

إِنَّ هَذَا "الانْفِجَارَ التَّرْكِيبِيَّ"، حَيْثُ تَحْتَفِظُ الصِّيَغُ المُخْتَلِفَةُ بِـ "نَوَاةِ مَعْنًى" وَاحِدَةٍ وَلَكِنَّ كُلَّ صِيغَةٍ تُضِيفُ بُعْدًا بَلَاغِيًّا خَاصًّا، هُوَ التَّجْسِيدُ الحَيُّ لِعَبْقَرِيَّةِ "النَّظْمِ". وَهُوَ يُثْبِتُ أَنَّ التَّحَرُّرَ مِنْ قُيُودِ التَّرْتِيبِ الثَّابِتِ، الَّذِي أَتَاحَهُ الإِعْرَابُ، يَفْسَحُ المَجَالَ لِتَوْلِيدِ مَعَانٍ بَلَاغِيَّةٍ دَقِيقَةٍ تَخْدِمُ هَدَفَ الإِبَانَةِ الكُبْرَى.

خُلَاصَةٌ: تَكَامُلُ المُحَرِّكِ التَّوْلِيدِيِّ

فِي خِتَامِ هَذَا التَّشْرِيحِ، نَخْلُصُ إِلَى أَنَّ "المُحَرِّكَ التَّوْلِيدِيَّ" لِلِّسَانِ العَرَبِيِّ هُوَ نِظَامٌ مُتَكَامِلٌ وَمُتَضَافِرٌ يَعْمَلُ عَلَى ثَلَاثَةِ مُسْتَوَيَاتٍ:

1. **مُسْتَوَى الجَذْرِ:** الَّذِي يُؤَسِّسُ لِلْوَحْدَةِ وَ**التَّمَاسُكِ المَفْهُومِيِّ**.
2. **مُسْتَوَى الوَزْنِ:** الَّذِي يُؤَسِّسُ لِلتَّنَوُّعِ وَ**الدِّقَّةِ الصَّرْفِيَّةِ**.
3. **مُسْتَوَى الإِعْرَابِ:** الَّذِي يُؤَسِّسُ لِلْوُضُوحِ وَ**المُرُونَةِ التَّرْكِيبِيَّةِ**.

إِنَّ تَكَامُلَ هَذِهِ المُكَوِّنَاتِ الثَّلَاثَةِ هُوَ مَا يَجْعَلُ اللِّسَانَ العَرَبِيَّ نِظَامًا "عُضْوِيًّا" وَ"تَوْلِيدِيًّا" بِامْتِيَازٍ، وَهُوَ مَا يُؤَسِّسُ لِذَلِكَ "العَالَمِ المَفْهُومِيِّ الشَّبَكِيِّ وَالمُتَرَابِطِ" الَّذِي وَصَفْنَاهُ فِي مُقَدِّمَتِنَا. إِنَّهَا بِنْيَةٌ لُغَوِيَّةٌ لَا تَكْتَفِي بِوَصْفِ الوَاقِعِ، بَلْ تُنْتِجُ المَعْنَى وَتُنَظِّمُهُ بِشَكْلٍ مَنْهَجِيٍّ وَعُضْوِيٍّ.

الفَصْلُ الثَّانِي: المُحَرِّكُ التَّرْكِيبِيُّ الإِغْرِيقِيُّ

تَشْرِيحُ بِنْيَةِ الاقْتِرَاضِ وَاللَّصْقِ وَالتَّرْكِيبِ كَأُسُسٍ لِعَالَمٍ مَفْهُومِيٍّ مُجَزَّأٍ

مُقَدِّمَةٌ: فِي اقْتِصَادِ اللِّسَانِ الهَجِينِ

يَنْتَقِلُ تَحْلِيلُنَا فِي هَذَا الفَصْلِ لِيُقَدِّمَ النَّمُوذَجَ المُضَادَّ لِـ "**اللِّسَانِ العُضْوِيِّ**"، حَيْثُ نَقُومُ بِتَشْرِيحِ البِنْيَةِ الدَّاخِلِيَّةِ لِلِسَانِ الإِغْرِيقِيِّ القَدِيمِ بِوَصْفِهِ نَمُوذَجًا أَصِيلًا لِـ "**اللِّسَانِ الهَجِينِ**" أَوِ "**التَّجْمِيعِيِّ**". فَإِذَا كَانَتِ العَرَبِيَّةُ تُمَثِّلُ "اقْتِصَادًا لُغَوِيًّا" قَائِمًا عَلَى الاكْتِفَاءِ الذَّاتِيِّ وَالتَّوْلِيدِ الدَّاخِلِيِّ، فَإِنَّ الإِغْرِيقِيَّةَ تُمَثِّلُ "**اقْتِصَادًا" قَائِمًا عَلَى الاسْتِيرَادِ وَالتَّجْمِيعِ**.

تَقُومُ أُطْرُوحَتُنَا المَرْكَزِيَّةُ عَلَى أَنَّ المُعْجَمَ الفِكْرِيَّ وَالحَضَارِيَّ لِلِّسَانِ الإِغْرِيقِيِّ لَمْ يَنْمُ عُضْوِيًّا مِنْ جُذُورٍ دَاخِلِيَّةٍ مُتَمَاسِكَةٍ، بَلْ تَشَكَّلَ عَبْرَ تَضَافُرِ ثَلَاثِ آلِيَّاتٍ "خَارِجِيَّةٍ" الطَّابَعِ: **الاقْتِرَاضُ** (Borrowing) مِنْ لُغَاتٍ وَثَقَافَاتٍ أُخْرَى، وَ**اللَّصْقُ** (Affixation) الَّذِي يُضِيفُ وَحَدَاتٍ صَرْفِيَّةً عَلَى أُصُولٍ قَائِمَةٍ، وَ**التَّرْكِيبُ المَزْجِيُّ** (Compounding) الَّذِي يَقُومُ عَلَى تَجْمِيعِ كَلِمَاتٍ مُسْتَقِلَّةٍ.

سَيَقُومُ هَذَا الفَصْلُ بِتَحْلِيلِ كُلِّ آلِيَّةٍ مِنْ هَذِهِ الآلِيَّاتِ الثَّلَاثِ، مُبَيِّنًا كَيْفَ أَسْهَمَتْ فِي تَشْكِيلِ لِسَانٍ "مُرَكَّبٍ" وَ"مُجَمَّعٍ". وَسَنُبَرْهِنُ عَلَى أَنَّ

هَذِهِ البِنْيَةَ التَّجْمِيعِيَّةَ قَدْ أَدَّتْ إِلَى نَشْأَةِ عَالَمٍ مَفْهُومِيٍّ **"كُتَلِيٍّ"** (Block-based) وَمُجَزَّأٍ وَمُتَشَظٍّ، تَتَجَاوَرُ فِيهِ المَفَاهِيمُ كَوَحَدَاتٍ مُسْتَقِلَّةٍ بَدَلًا مِنْ أَنْ تَتَوَالَدَ مِنْ أَصْلٍ مُشْتَرَكٍ. هَذِهِ الخَاصِّيَّةُ، كَمَا سَنَرَى، لَيْسَتْ مُجَرَّدَ تَفْصِيلٍ لِسَانِيٍّ، بَلْ هِيَ المِفْتَاحُ لِفَهْمِ **"العَقْلِيَّةِ التَّحْلِيلِيَّةِ"** الَّتِي ازْدَهَرَتْ فِي البِيئَةِ الإِغْرِيقِيَّةِ وَوَجَدَتْ تَجْسِيدَهَا الأَعْلَى فِي المَنْطِقِ الأَرِسْطِيِّ.

تَلْخِيصُ

يُمْكِنُ تَلْخِيصُ الفَرْقِ الجَوْهَرِيِّ بَيْنَ النَّمُوذَجَيْنِ اللُّغَوِيَّيْنِ فِي اسْتِعَارَةِ الحَرَكَةِ وَالإِنْتَاجِ.

فَ**اللِّسَانُ العَرَبِيُّ المُبِينُ** يَعْمَلُ كَمُحَرِّكٍ تَوْلِيدِيٍّ ذِي دَفْعٍ ذَاتِيٍّ، يَنْطَلِقُ دَائِمًا إِلَى الأَمَامِ بِسُرْعَةٍ وَثِقَةٍ. وَقُودُهُ هُوَ "الجَذْرُ" الأَصِيلُ، وَتُرُوسُهُ هِيَ "الأَوْزَانُ" المُنْتِجَةُ، وَنِظَامُ تَوْجِيهِهِ هُوَ "النَّظْمُ" البَلَاغِيُّ الَّذِي يُحَرِّرُهُ "الإِعْرَابُ". إِنَّهُ نِظَامٌ لَا يَحْتَاجُ إِلَى التَّوَقُّفِ لِيُفَكِّرَ فِي كَيْفِيَّةِ صِنَاعَةِ المَفْهُومِ التَّالِي، لِأَنَّ آلِيَّةَ الصِّنَاعَةِ مُدْمَجَةٌ فِي صُلْبِ تَكْوِينِهِ. وَهَذِهِ الطبيعة **"الخَوَارِزْمِيَّةُ"** (Algorithmic) بِالتَّحْدِيدِ هِيَ مَا تَجْعَلُهُ نَمُوذَجًا مِثَالِيًّا لِبَرْمَجَةِ جِيلٍ جَدِيدٍ مِنَ الذَّكَاءِ الاصْطِنَاعِيِّ. فَبَدَلًا مِنَ الاعْتِمَادِ الكُلِّيِّ عَلَى النَّمَاذِجِ الإِحْصَائِيَّةِ الضَّخْمَةِ الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَى "حِفْظِ" مَلَايِينِ الأَمْثِلَةِ لِتَتَعَرَّفَ عَلَى الأَنْمَاطِ، يُمْكِنُ بِنَاءُ ذَكَاءٍ اصْطِنَاعِيٍّ **"تَوْلِيدِيٍّ"** أَصِيلٍ يَسْتَوْعِبُ القَوَاعِدَ المَنْطِقِيَّةَ لِلْجَذْرِ وَالوَزْنِ. هَذَا لَا يَجْعَلُ النِّظَامَ أَكْثَرَ كَفَاءَةً فَحَسْبُ، بَلْ أَكْثَرَ **"شَفَافِيَّةً" وَقَابِلِيَّةً لِلتَّفْسِيرِ** (Explainable AI)، وَقُدْرَةً عَلَى الإِبْدَاعِ المُنْضَبِطِ وَفْقًا لِمَنْطِقٍ دَاخِلِيٍّ وَاضِحٍ.

أَمَّا **اللِّسَانُ الإِغْرِيقِيُّ**، فَهُوَ يَعْمَلُ بِمَنْطِقٍ مُخْتَلِفٍ. فَهُوَ لَا يَسْتَطِيعُ الانْطِلَاقَ إِلَى الأَمَامِ مُبَاشَرَةً، بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَتَوَقَّفَ أَوَّلًا لِيَنْظُرَ إِلَى الوَرَاءِ، أَيْ إِلَى مُعْجَمِهِ المُتَرَاكِمِ مِنَ "الكُتَلِ" الجَاهِزَةِ وَالمُقْتَرَضَةِ. ثُمَّ يَقُومُ بِعَمَلِيَّةِ تَحْلِيلٍ وَتَصْنِيفٍ لِهَذِهِ الكُتَلِ لِيَرَى أَيُّهَا يُنَاسِبُ المَفْهُومَ الجَدِيدَ. بَعْدَ هَذِهِ

الوَقْفَةِ التَّحْلِيلِيَّةِ، يُمْكِنُهُ أَنْ يَنْطَلِقَ بِخُطًى ثَابِتَةٍ وَمَحْسُوبَةٍ عَبْرَ تَرْكِيبِ هَذِهِ الأَجْزَاءِ. إِنَّهَا "العَقْلِيَّةُ التَّحْلِيلِيَّةُ" الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَى التَّفْكِيكِ قَبْلَ البِنَاءِ، عَلَى عَكْسِ العَقْلِيَّةِ الاشْتِقَاقِيَّةِ الَّتِي تَقُومُ عَلَى التَّوْلِيدِ المُبَاشِرِ مِنَ الأَصْلِ.

بِاخْتِصَارٍ، يُعَدُّ **اللِّسَانُ العَرَبِيُّ المُبِينُ** فِطْرِيًّا وَسَهْلًا عَلَى العَمَلِيَّاتِ الدِّمَاغِيَّةِ لِأَنَّهُ خَوَارِزْمِيٌّ وَقَائِمٌ عَلَى قَوَاعِدَ مُطَّرِدَةٍ.

أَمَّا **اللِّسَانُ الإِغْرِيقِيُّ**، فَهُوَ لِسَانٌ مِعْجَمِيٌّ تَرَاكُمِيٌّ، يَتَطَلَّبُ جُهْدًا إِدْرَاكِيًّا أَكْبَرَ، لِأَنَّهُ يَعْتَمِدُ عَلَى حِفْظِ قَائِمَةٍ ضَخْمَةٍ مِنَ الحَالَاتِ الخَاصَّةِ وَالشَّاذَّةِ بَدَلًا مِنَ الاعْتِمَادِ عَلَى قَوَاعِدَ قِيَاسِيَّةٍ وَاضِحَةٍ.

أَرْضٌ هَجِينَةٌ: الاقْتِرَاضُ كَطَبَقَةٍ تَأْسِيسِيَّةٍ

إِنَّ أَوَّلَ وَأَعْمَقَ سِمَةٍ تَدُلُّ عَلَى هَجَنَةِ اللِّسَانِ الإِغْرِيقِيِّ هِيَ ظَاهِرَةُ **الاقْتِرَاضِ**، الَّتِي لَمْ تَكُنْ ظَاهِرَةً ثَانَوِيَّةً أَوْ طَارِئَةً فِي تَارِيخِهِ، بَلْ كَانَتْ جُزْءًا تَأْسِيسِيًّا مِنْ تَكْوِينِهِ مُنْذُ لَحَظَاتِهِ الأُولَى.

1. الطَّبَقَةُ الأَعْمَقُ: أَثَرُ اللُّغَاتِ السَّابِقَةِ لِلْيُونَانِيَّةِ (Substrate Languages):

تُشِيرُ الدِّلَائِلُ اللُّغَوِيَّةُ المُقَارَنَةُ إِلَى أَنَّ المُتَحَدِّثِينَ بِاللُّغَةِ الإِغْرِيقِيَّةِ البِدَائِيَّةِ لَمْ يَكُونُوا السُّكَّانَ الأَصْلِيِّينَ لِمِنْطَقَةِ بَحْرِ إِيجَةَ. وَعِنْدَ وُصُولِهِمْ، وَجَدُوا شُعُوبًا أُخْرَى تَتَحَدَّثُ لُغَاتٍ غَيْرَ "هِنْدُوأُورُوبِيَّةٍ" قَدْ انْدَثَرَتْ. وَكَأَيِّ لُغَةٍ وَافِدَةٍ، اقْتَرَضَتِ الإِغْرِيقِيَّةُ مِنْ هَذِهِ اللُّغَاتِ الأَصْلِيَّةِ عَدَدًا كَبِيرًا مِنَ المُفْرَدَاتِ الَّتِي تَصِفُ المَفَاهِيمَ وَالأَشْيَاءَ المَحَلِّيَّةَ. يُعْتَقَدُ أَنَّ قِسْمًا كَبِيرًا مِنَ المُعْجَمِ الإِغْرِيقِيِّ الَّذِي لَا يُمْكِنُ رَدُّهُ إِلَى أُصُولٍ "هِنْدُوأُورُوبِيَّةٍ" يَعُودُ إِلَى هَذِهِ الطَّبَقَةِ العَمِيقَةِ ((Horrocks, 2014)). وَتَشْمَلُ الأَمْثِلَةُ أَسْمَاءَ أَمَاكِنَ (مِثْلُ Κόρινθος)، وَأَسْمَاءَ نَبَاتَاتٍ (مِثْلُ ὑάκινθος)، وَمُصْطَلَحَاتٍ ثَقَافِيَّةً وَبَحْرِيَّةً أَسَاسِيَّةً مِثْلَ θάλασσα وَتُنْطِقُ (thálassa) بِمَعْنَى "بَحْر"، وَ βασιλεύς

وَتُنْطِقُ (basileús) بِمَعْنَى "مَلِك". إِنَّ وُجُودَ هَذِهِ الطَّبَقَةِ الأُولَى مِنَ الاقْتِرَاضِ يَعْنِي أَنَّ اللِّسَانَ وُلِدَ هَجِينًا.

2. الأَدَاةُ المُسْتَوْرَدَةُ: الأَبْجَدِيَّةُ الفِينِيقِيَّةُ:

كَانَ الاقْتِرَاضُ الأَكْثَرُ حَسْمًا وَتَأْثِيرًا هُوَ اقْتِرَاضُ "تِقْنِيَةِ الكِتَابَةِ" نَفْسِهَا. فَفِي القَرْنِ الثَّامِنِ قَبْلَ المِيلَادِ، قَامَ الإِغْرِيقِ بِاقْتِبَاسِ الأَبْجَدِيَّةِ مِنَ الفِينِيقِيِّينَ، وَهِيَ حَقِيقَةٌ لَا يُؤَكِّدُهَا التَّارِيخُ فَحَسْبُ، بَلْ تُؤَكِّدُهَا أَسْمَاءُ الحُرُوفِ الإِغْرِيقِيَّةِ نَفْسُهَا (أَلْفَا، بِيتَا، جَامَّا...) الَّتِي هِيَ تَحْرِيفٌ لِلْأَسْمَاءِ السَّامِيَّةِ (أَلِف، بَيْت، جِيمَل) ((Powell, 1996)). هَذَا "الاسْتِيرَادُ" لِلْأَدَاةِ الأَهَمِّ لِتَدْوِينِ الفِكْرِ وَتَنْظِيمِهِ يُرَسِّخُ صُورَةَ اللِّسَانِ الإِغْرِيقِيِّ كَلِسَانٍ "مُسْتَقْبِلٍ" وَ"مُكَيِّفٍ" لِمُنْجَزَاتِ الآخَرِينَ أَكْثَرَ مِنْهُ "مُبْدِعًا" لَهَا مِنْ دَاخِلِهِ.

3. الطَّبَقَاتُ الإِمْبِرَاطُورِيَّةُ: الفَارِسِيَّةُ وَاللَّاتِينِيَّةُ:

اسْتَمَرَّ هَذَا النَّمَطُ مِنَ الاقْتِرَاضِ طَوَالَ تَارِيخِ اللُّغَةِ. فَخِلَالَ الفَتْرَةِ الكِلَاسِيكِيَّةِ، اقْتَرَضَتِ الإِغْرِيقِيَّةُ عَدَدًا مِنَ المُصْطَلَحَاتِ الإِدَارِيَّةِ وَالفَاخِرَةِ مِنَ اللُّغَةِ الفَارِسِيَّةِ القَدِيمَةِ، مِثْلُ παράδεισος وَيُلْفَظُ (parádeisos) بِمَعْنَى "حَدِيقَة". وَلَاحِقًا، وَمَعَ الهَيْمَنَةِ الرُّومَانِيَّةِ، تَعَرَّضَتِ الإِغْرِيقِيَّةُ لِمَوْجَةٍ هَائِلَةٍ مِنَ التَّأْثِيرِ اللَّاتِينِيِّ، خُصُوصًا فِي المُعْجَمِ الإِدَارِيِّ وَالقَانُونِيِّ وَالعَسْكَرِيِّ ((Meillet, 1920)).

إِنَّ هَذَا التَّرَاكُمَ التَّارِيخِيَّ لِطَبَقَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ مِنَ الاقْتِرَاضِ يُؤَكِّدُ أَنَّ "الهَجَنَةَ" لَيْسَتْ حَالَةً طَارِئَةً فِي اللِّسَانِ الإِغْرِيقِيِّ، بَلْ هِيَ جُزْءٌ أَصِيلٌ مِنْ هُوِيَّتِهِ وَطَرِيقَتِهِ فِي التَّوَسُّعِ المِعْجَمِيِّ.

البِنَاءُ بِاللَّصْقِ: دَوْرُ السَّوَابِقِ وَاللَّوَاحِقِ

إِذَا كَانَ الاقْتِرَاضُ هُوَ الآلِيَّةَ الخَارِجِيَّةَ الكُبْرَى، فَإِنَّ **اللَّصْقَ**

(Affixation) هُوَ الآلِيَّةُ الصَّرْفِيَّةُ الدَّاخِلِيَّةُ الأَهَمُّ فِي الإِغْرِيقِيَّةِ. وَهِيَ تَقُومُ عَلَى مَنْطِقِ "إِضَافِيٍّ" (Additive) يَتَمَثَّلُ فِي إِلْصَاقِ وَحَدَاتٍ صَرْفِيَّةٍ صَغِيرَةٍ (سَوَابِقَ أَوْ لَوَاحِقَ) بِـ "أَصْلِ الكَلِمَةِ" (Stem) لِتَعْدِيلِ مَعْنَاهَا. هَذِهِ العَمَلِيَّةُ تَخْتَلِفُ جَوْهَرِيًّا عَنِ الاشْتِقَاقِ العَرَبِيِّ "التَّحْوِيلِيِّ" الَّذِي يُعِيدُ تَشْكِيلَ الجَذْرِ بِالْكَامِلِ.

وَقَدْ طَوَّرَتِ الإِغْرِيقِيَّةُ نِظَامًا غَنِيًّا مِنَ السَّوَابِقِ (Prefixes) وَاللَّوَاحِقِ (Suffixes) الَّتِي أَصْبَحَتْ أَدَوَاتٍ قَوِيَّةً لِصِيَاغَةِ المَفَاهِيمِ المُجَرَّدَةِ.

- **السَّوَابِقُ:** تُضِيفُ السَّوَابِقُ غَالِبًا مَعَانِيَ ظَرْفِيَّةً أَوْ عَلَائِقِيَّةً، مِثْلُ: -σύν وتلفظ (-syn) لِلدَّلَالَةِ عَلَى "المَعِيَّةِ" (مِنْهَا *synthesis*)، وَ -ἀνά وَتلفظ (-ana) لِلدَّلَالَةِ عَلَى "الصُّعُودِ أَوِ التَّكْرَارِ" (مِنْهَا *analysis*)، وَ -κατά وتلفظ (-kata) لِلدَّلَالَةِ عَلَى "النُّزُولِ" (مِنْهَا *catastrophe*).
- **اللَّوَاحِقُ:** تُضِيفُ اللَّوَاحِقُ غَالِبًا مَعَانِيَ وَظِيفِيَّةً تُحَوِّلُ الكَلِمَةَ مِنْ فَئَةٍ إِلَى أُخْرَى، وَتَعْمَلُ كَـ "بِطَاقَاتِ تَصْنِيفٍ". وَمِنْ أَشْهَرِهَا (Sihler, 1995):
  - -σις وتلفظ (-sis): لِلدَّلَالَةِ عَلَى "عَمَلِيَّةِ" الفِعْلِ، مِثْلُ ποίησις وتلفظ (poíēsis)، أَيْ "عَمَلِيَّةُ الصُّنْعِ".
  - -μα وتلفظ (-ma): لِلدَّلَالَةِ عَلَى "نَتِيجَةِ" الفِعْلِ، مِثْلُ ποίημα وتلفظ (poíēma)، أَيْ "الشَّيْءُ المَصْنُوعُ".
  - -της وتلفظ (-tēs): لِلدَّلَالَةِ عَلَى "الفَاعِلِ"، مِثْلُ ποιητής وتلفظ (poiētḗs)، أَيْ "الصَّانِعُ".
  - -ικός وتلفظ (-ikos): لِلدَّلَالَةِ عَلَى "مَا يَتَعَلَّقُ بِـ"، مِثْلُ ποιητικός وتلفظ (poiētikós)، أَيْ "مَا يَتَعَلَّقُ

بِالصِّنَاعَةِ/الشِّعْرِ".

إِنَّ هَذَا النِّظَامَ، عَلَى قُوَّتِهِ، هُوَ نِظَامٌ "تَجْمِيعِيٌّ" فِي جَوْهَرِهِ. فَهُوَ يَقُومُ عَلَى "لَصْقِ" وَحَدَاتٍ مُتَمَايِزَةٍ، وَيُعَزِّزُ عَقْلِيَّةً تَمِيلُ إِلَى تَصْنِيفِ الأَشْيَاءِ وَوَضْعِهَا فِي فَئَاتٍ مُحَدَّدَةٍ.

ذِرْوَةُ التَّجْمِيعِ: التَّرْكِيبُ المَزْجِيُّ كَمُحَرِّكٍ لِلْفَلْسَفَةِ

تَصِلُ هَذِهِ العَقْلِيَّةُ التَّجْمِيعِيَّةُ إِلَى ذِرْوَتِهَا فِي آلِيَّةِ **التَّرْكِيبِ المَزْجِيِّ** (Compounding)، الَّتِي أَصْبَحَتِ الأَدَاةَ الأَهَمَّ وَالأَكْثَرَ نُبْلًا لِإِنْتَاجِ المُعْجَمِ الفَلْسَفِيِّ وَالعِلْمِيِّ. فَهُنَا، يَتِمُّ تَكْوِينُ المَفْهُومِ الجَدِيدِ بِشَكْلٍ صَرِيحٍ عَنْ طَرِيقِ تَجْمِيعِ "كُتْلَتَيْنِ" مَعْنَوِيَّتَيْنِ مُسْتَقِلَّتَيْنِ.

لَقَدْ أَصْبَحَتْ هَذِهِ الآلِيَّةُ هِيَ الطَّابَعَ المُمَيِّزَ لِلُّغَةِ الفِكْرِيَّةِ الإِغْرِيقِيَّةِ، وَمِنْهَا وَرِثَتْهَا كُلُّ اللُّغَاتِ الأُورُوبِيَّةِ. وَتُعَدُّ الأَمْثِلَةُ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا سَابِقًا —philosophia، demokratia، geōmetria، theologia— مُجَرَّدَ غَيْضٍ مِنْ فَيْضٍ. فَقَدْ تَمَّ بِنَاءُ صَرْحِ الفِكْرِ الإِغْرِيقِيِّ بِأَكْمَلِهِ بِهَذِهِ "الكُتَلِ" المُجَمَّعَةِ.

إِنَّ هَذَا "المُحَرِّكَ التَّرْكِيبِيَّ" يَقُومُ عَلَى مَنْطِقٍ تَحْلِيلِيٍّ، فَهُوَ يُعَرِّفُ المَفْهُومَ مِنْ خِلَالِ تَفْكِيكِهِ إِلَى مُكَوِّنَاتِهِ. وَهَذَا يَنْتُجُ عَنْهُ عَالَمٌ مَفْهُومِيٌّ "مُجَزَّأٌ" أَوْ "كُتَلِيٌّ"، تَتَجَاوَرُ فِيهِ المَفَاهِيمُ كَجُزُرٍ مُنْفَصِلَةٍ، وَلَيْسَتْ كَأَغْصَانٍ فِي شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ.

خُلَاصَةٌ: لِسَانٌ مُرَكَّبٌ لِعَقْلٍ مُفَكِّكٍ ومُحَلِّلٍ

فِي خِتَامِ هَذَا التَّشْرِيحِ، نَخْلُصُ إِلَى أَنَّ "المُحَرِّكَ" الَّذِي يَقُومُ عَلَيْهِ اللِّسَانُ الإِغْرِيقِيُّ هُوَ مُحَرِّكٌ **تَرْكِيبِيٌّ وَتَجْمِيعِيٌّ**. فَهُوَ يَقُومُ عَلَى أَسَاسٍ عَمِيقٍ مِنَ **الاقْتِرَاضِ**، وَيَعْمَلُ صَرْفِيًّا مِنْ خِلَالِ **اللَّصْقِ** الإِضَافِيِّ، وَيَصِلُ إِلَى ذِرْوَتِهِ الإِبْدَاعِيَّةِ فِي **التَّرْكِيبِ المَزْجِيِّ**.

إِنَّ هَذِهِ الآلِيَّاتِ الثَّلَاثَ المُتَضَافِرَةَ قَدْ خَلَقَتْ لِسَانًا "هَجِينًا" وَ"مُجَمَّعًا"، كَانَ الأَدَاةَ المِثَالِيَّةَ لِتَشْكِيلِ وَتَعْزِيزِ "عَقْلِيَّةٍ تَحْلِيلِيَّةٍ" تَرَى العَالَمَ كَمَجْمُوعَةٍ مِنَ الأَجْزَاءِ القَابِلَةِ لِلتَّفْكِيكِ وَالتَّصْنِيفِ وَإِعَادَةِ التَّرْكِيبِ. إِنَّ العَالَمَ المَفْهُومِيَّ الَّذِي بَنَاهُ لَمْ يَكُنْ "شَبَكَةً" مُتَرَابِطَةً، بَلْ كَانَ "صَرْحًا" مِعْمَارِيًّا عَظِيمًا بُنِيَ مِنْ "كُتَلٍ" مُسْتَقِلَّةٍ.

الجُزْءُ الثَّانِي: الآثَارُ الإِدْرَاكِيَّةُ وَالعَصَبِيَّةُ

بَعْدَ أَنْ قُمْنَا فِي الجُزْءِ الأَوَّلِ بِتَشْرِيحِ "المِعْمَارِيَّتَيْنِ اللُّغَوِيَّتَيْنِ" المُؤَسِّسَتَيْنِ لِلِّسَانَيْنِ العَرَبِيِّ وَالإِغْرِيقِيِّ، نَنْتَقِلُ فِي هَذَا الجُزْءِ مِنَ "الهَنْدَسَةِ" إِلَى "السَّاكِنِ"، أَيْ مِنْ تَحْلِيلِ بِنْيَةِ اللِّسَانِ إِلَى دِرَاسَةِ أَثَرِهَا العَمِيقِ عَلَى "عَقْلِ" المُتَكَلِّمِ بِهِ. يَنْطَلِقُ هَذَا القِسْمُ مِنْ فَرَضِيَّةٍ مَرْكَزِيَّةٍ مَفَادُهَا:

أَنَّ المُدَاوَمَةَ اليَوْمِيَّةَ وَغَيْرَ الوَاعِيَةَ عَلَى اسْتِخْدَامِ لُغَةٍ ذَاتِ بِنْيَةٍ مُعَيَّنَةٍ هِيَ بِمَثَابَةِ "تَدْرِيبٍ إِدْرَاكِيٍّ" مُكَثَّفٍ يُسْهِمُ فِي نَحْتِ وَتَشْكِيلِ "عَادَاتٍ عَقْلِيَّةٍ" (Cognitive Habits) **مُعَيَّنَةٍ.**

هَذِهِ العَادَاتُ، بِمُرُورِ الوَقْتِ، تَتَرَسَّخُ لِتُصْبِحَ "عَقْلِيَّةً" (Mindset) أَوْ أُسْلُوبًا مَعْرِفِيًّا مُهَيْمِنًا.

سَيَقُومُ هَذَا الجُزْءُ بِتَحْلِيلِ "عَقْلِيَّتَيْنِ" مُتَبَايِنَتَيْنِ، كُلٌّ مِنْهُمَا نِتَاجٌ لِلْمِعْمَارِيَّةِ اللُّغَوِيَّةِ الَّتِي أَنْجَبَتْهَا. سَيَتَنَاوَلُ **الفَصْلُ الثَّالِثُ "العَقْلِيَّةُ الاشْتِقَاقِيَّةُ"**، مُبَيِّنًا كَيْفَ أَنَّ بِنْيَةَ الاشْتِقَاقِ العَرَبِيَّةَ تُرَسِّخُ عَادَةَ البَحْثِ عَنِ الأُصُولِ وَالعِلَلِ المُشْتَرَكَةِ. وَفِي المُقَابِلِ، سَيَتَنَاوَلُ **الفَصْلُ الرَّابِعُ "العَقْلِيَّةُ التَّحْلِيلِيَّةُ"**، مُوَضِّحًا كَيْفَ أَنَّ بِنْيَةَ التَّرْكِيبِ الإِغْرِيقِيَّةَ تُعَزِّزُ عَادَةَ التَّحْلِيلِ وَالتَّصْنِيفِ وَتَحْدِيدِ الفُرُوقِ.

وَالأَهَمُّ مِنْ ذَلِكَ، أَنَّ هَذَا الجُزْءَ لَنْ يَقِفَ عِنْدَ حُدُودِ الوَصْفِ المَجَازِيِّ، بَلْ سَيَقْتَرِحُ فِي **الفَصْلِ الخَامِسِ "نَمُوذَجًا عَصَبِيًّا-مَعْرِفِيًّا"**، يَسْعَى مِنْ خِلَالِهِ إِلَى تَقْدِيمِ تَفْسِيرٍ عِلْمِيٍّ مُحْتَمَلٍ، مَبْنِيٍّ عَلَى نَظَرِيَّاتِ المُرُونَةِ العَصَبِيَّةِ وَالذَّاكِرَةِ، لِكَيْفِيَّةِ تَجَذُّرِ هَاتَيْنِ العَقْلِيَّتَيْنِ المُخْتَلِفَتَيْنِ فِي الدَّوَائِرِ العَصَبِيَّةِ لِلدِّمَاغِ. إِنَّهُ مُحَاوَلَةٌ لِبِنَاءِ جِسْرٍ بَيْنَ عِلْمِ اللِّسَانِيَّاتِ التَّارِيخِيِّ وَعُلُومِ الدِّمَاغِ الحَدِيثَةِ، لِإِظْهَارِ أَنَّ أَثَرَ اللِّسَانِ عَلَى الفِكْرِ لَيْسَ مُجَرَّدَ فِكْرَةٍ فَلْسَفِيَّةٍ، بَلْ قَدْ يَكُونُ حَقِيقَةً بَيُولُوجِيَّةً عَمِيقَةً.

الفَصْلُ الثَّالِثُ: العَقْلِيَّةُ الاشْتِقَاقِيَّةُ

كَيْفَ يُؤَسِّسُ الاشْتِقَاقُ اللُّغَوِيُّ لِمَنْهَجٍ مَعْرِفِيٍّ يَبْحَثُ عَنِ الأَصْلِ وَالعِلَّةِ؟

مُقَدِّمَةٌ: فِي تَشَكُّلِ "عَادَاتِ" العَقْلِ

يَنْطَلِقُ هَذَا البَحْثُ مِنْ فَرَضِيَّةٍ مَرْكَزِيَّةٍ تَرَى:

أَنَّ العَادَاتِ الذِّهْنِيَّةَ العَمِيقَةَ الَّتِي تَحْكُمُ طَرِيقَةَ تَفْكِيرِ حَضَارَةٍ مَا لَيْسَتْ مُجَرَّدَ خِيَارَاتٍ عَقْلِيَّةٍ وَاعِيَةٍ، بَلْ هِيَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَحْيَانِ نِتَاجٌ مُتَجَذِّرٌ لِلتَّدْرِيبِ الإِدْرَاكِيِّ المُسْتَمِرِّ الَّذِي تَفْرِضُهُ البِنْيَةُ العَمِيقَةُ لِلِسَانِهَا الأُمِّ.

فِي هَذَا الفَصْلِ، سَنُسَلِّطُ الضَّوْءَ عَلَى كَيْفِيَّةِ نَشْأَةِ مَا نُطْلِقُ عَلَيْهِ **"العَقْلِيَّةَ الاشْتِقَاقِيَّةَ"** (The Derivational Mindset) فِي الفِكْرِ العَرَبِيِّ الإِسْلَامِيِّ، مُبَرْهِنِينَ عَلَى أَنَّ المُدَاوَمَةَ المُسْتَمِرَّةَ وَغَيْرَ الوَاعِيَةَ عَلَى مُمَارَسَةِ الاشْتِقَاقِ تُرَسِّخُ "عَقْلِيَّةً" فَرِيدَةً تَمِيلُ بِشَكْلٍ أَسَاسِيٍّ إِلَى **التَّجْرِيدِ القِيَاسِيِّ** (Analogical Abstraction) وَالبَحْثِ الدَّائِمِ عَنِ **الأُصُولِ** (Origins) **وَالعِلَلِ المُشْتَرَكَةِ** (Common Causes).

تَقُومُ أُطْرُوحَتُنَا عَلَى:

أَنَّ هَذِهِ "العَادَةَ العَقْلِيَّةَ"، الَّتِي صَقَلَتْهَا آلِيَّاتُ الجَذْرِ وَالوَزْنِ، لَمْ تَبْقَ حَبِيسَةَ نِطَاقِ اللُّغَةِ، بَلْ "تُسَرَّبَتْ" لِتُصْبِحَ النَّمُوذَجَ الإِدْرَاكِيَّ وَالمَنْهَجِيَّةَ المَعْرِفِيَّةَ المُهَيْمِنَةَ الَّتِي شَكَّلَتْ بُنْيَةَ العُلُومِ الإِسْلَامِيَّةِ الكِلَاسِيكِيَّةِ بِأَكْمَلِهَا.

سَنَقُومُ أَوَّلًا بِتَشْرِيحِ الاشْتِقَاقِ كَتَدْرِيبٍ إِدْرَاكِيٍّ يُؤَسِّسُ لِهَذِهِ العَقْلِيَّةِ، ثُمَّ نَتَتَبَّعُ تَجَلِّيَاتِ هَذِهِ العَقْلِيَّةِ فِي صَمِيمِ المَنْهَجِيَّةِ الفِقْهِيَّةِ وَاللَّاهُوتِيَّةِ. وَأَخِيرًا، سَنُقَارِنُ هَذَا النَّمُوذَجَ بِنَظِيرِهِ التَّحْلِيلِيِّ-التَّصْنِيفِيِّ فِي الفِكْرِ الإِغْرِيقِيِّ، لِنُبَيِّنَ كَيْفَ أَنَّ كُلَّ لِسَانٍ يُوَجِّهُ العَقْلَ نَحْوَ مَسَارٍ مَعْرِفِيٍّ مُخْتَلِفٍ.

مِنَ اللِّسَانِ إِلَى الذِّهْنِ: الاشْتِقَاقُ كَتَدْرِيبٍ إِدْرَاكِيٍّ

إِنَّ اسْتِخْدَامَ اللِّسَانِ اليَوْمِيَّ لَيْسَ عَمَلِيَّةً سَلْبِيَّةً أَوْ مُحَايِدَةً، بَلْ هُوَ **"تَدْرِيبٌ عَقْلِيٌّ"** (Cognitive Workout) مُكَثَّفٌ وَمُسْتَمِرٌ يَقُومُ بِنَحْتِ دَوَائِرِنَا العَصَبِيَّةِ وَتَشْكِيلِ عَادَاتِنَا الإِدْرَاكِيَّةِ. وَلِفَهْمِ عُمْقِ وَكَفَاءَةِ هَذَا التَّدْرِيبِ البَشَرِيِّ، يُمْكِنُ مُقَارَنَتُهُ بِعَمَلِيَّةِ تَدْرِيبِ نَمَاذِجِ الذَّكَاءِ الاصْطِنَاعِيِّ، حَيْثُ يَتَجَلَّى تَفَوُّقُ الدِّمَاغِ البَشَرِيِّ بِشَكْلٍ هَائِلٍ. فَبَيْنَمَا تَحْتَاجُ النَّمَاذِجُ اللُّغَوِيَّةُ الكَبِيرَةُ إِلَى بَيَانَاتٍ فَلَكِيَّةٍ (تريليونات الكلمات) وَطَاقَةٍ هَائِلَةٍ لِلتَّعَلُّمِ الإِحْصَائِيِّ، يَقُومُ دِمَاغُ الطِّفْلِ بِاسْتِخْلَاصِ قَوَاعِدَ لُغَةٍ كَامِلَةٍ مِنْ تَعَرُّضٍ مَحْدُودٍ وَ"فَقِيرٍ" نِسْبِيًّا لِلْبَيَانَاتِ، فِي ظَاهِرَةٍ تُعْرَفُ بِـ "فَقْرِ المُنَبِّهِ". وَالأَهَمُّ مِنْ ذَلِكَ، أَنَّ التَّدْرِيبَ البَشَرِيَّ يُنْتِجُ **"فَهْمًا"** حَقِيقِيًّا يَرْبِطُ الكَلِمَةَ بِالتَّجْرِبَةِ الحِسِّيَّةِ وَالقَصْدِيَّةِ، بَيْنَمَا يُنْتِجُ التَّدْرِيبُ الآلِيُّ مُجَرَّدَ **"تَعَرُّفٍ"** إِحْصَائِيٍّ عَلَى الأَنْمَاطِ دُونَ وُعْيٍ بِمَدْلُولِهَا الحَقِيقِيِّ.

وَفِي هَذَا السِّيَاقِ، تَفْرِضُ بِنْيَةُ اللِّسَانِ العَرَبِيِّ عَلَى النَّاطِقِ بِهَا نَوْعًا خَاصًّا وَفَرِيدًا مِنَ "التَّدْرِيبِ العَقْلِيِّ" يَتَمَحْوَرُ حَوْلَ الاشْتِقَاقِ. هَذَا التَّدْرِيبُ المُسْتَمِرُّ يُرَسِّخُ وَيَصْقُلُ مَهَارَتَيْنِ إِدْرَاكِيَّتَيْنِ أَسَاسِيَّتَيْنِ تُشَكِّلَانِ مَعًا مَلَامِحَ

مَا نُطْلِقُ عَلَيْهِ "العَقْلِيَّةَ الاشْتِقَاقِيَّةَ".

تَشْرِيحُ العَقْلِيَّةِ الاشْتِقَاقِيَّةِ: مَهَارَتَانِ مُتَكَامِلَتَانِ

1. المَهَارَةُ الأُولَى: التَّجْرِيدُ وَالرَّدُّ إِلَى الأَصْلِ

تَتَطَلَّبُ مُعَالَجَةُ المُعْجَمِ العَرَبِيِّ مِنَ الدِّمَاغِ القِيَامَ بِعَمَلِيَّةِ **تَجْرِيدٍ** (Abstraction) مُسْتَمِرَّةٍ، تَتَمَثَّلُ فِي عَزْلِ "الأَصْلِ" المُجَرَّدِ، أَيِ **الجَذْرِ**، مِنْ بَيْنِ "فُرُوعِهِ" المَحْسُوسَةِ. فَالْقُدْرَةُ عَلَى فَهْمِ العَلَاقَةِ الجَوْهَرِيَّةِ بَيْنَ "حُكْمٍ" وَ"حِكْمَةٍ" وَ"حَاكِمٍ" وَ"مَحْكَمَةٍ" تَقْتَضِي إِدْرَاكًا حَدْسِيًّا لِوُجُودِ النَّوَاةِ الدَّلَالِيَّةِ المُشْتَرَكَةِ (ح-ك-م). هَذِهِ المُمَارَسَةُ الذِّهْنِيَّةُ الدَّائِمَةُ تُدَرِّبُ العَقْلَ عَلَى عَادَةٍ إِدْرَاكِيَّةٍ أَسَاسِيَّةٍ هِيَ **اخْتِرَاقُ سَطْحِ التَّنَوُّعِ لِلْوُصُولِ إِلَى جَوْهَرِ الوَحْدَةِ**. إِنَّهَا تُؤَسِّسُ لِعَقْلِيَّةٍ تَرَى أَنَّ الحَقِيقَةَ الأَهَمَّ لَيْسَتْ فِي الظَّوَاهِرِ المُتَغَيِّرَةِ (الفُرُوعِ)، بَلْ فِي الأُصُولِ الثَّابِتَةِ الَّتِي تَنْبَثِقُ مِنْهَا.

2. المَهَارَةُ الثَّانِيَةُ: القِيَاسُ وَتَطْبِيقُ القَاعِدَةِ

إِلَى جَانِبِ تَجْرِيدِ الأَصْلِ، تَتَطَلَّبُ اللُّغَةُ إِدْرَاكَ **الوَزْنِ الصَّرْفِيِّ** كَقَاعِدَةٍ عَامَّةٍ وَمُطَّرِدَةٍ. فَالوَزْنُ هُوَ "العِلَّةُ" الوَظِيفِيَّةُ الَّتِي تُحَدِّدُ كَيْفِيَّةَ تَحَوُّلِ مَعْنَى الجَذْرِ. وَاكْتِشَافُ هَذِهِ القَاعِدَةِ وَتَطْبِيقُهَا عَلَى جُذُورٍ مُخْتَلِفَةٍ هُوَ جَوْهَرُ **التَّفْكِيرِ القِيَاسِيِّ** (Analogical Thinking). وَكَمَا يُؤَكِّدُ عُلَمَاءُ المَعْرِفَةِ المُعَاصِرُونَ مِثْلُ دُوغلَاس هُوفْشْتَادْتَر، فَإِنَّ القِيَاسَ هُوَ قَلْبُ التَّفْكِيرِ البَشَرِيِّ وَمُحَرِّكُهُ الأَسَاسِيُّ ((Hofstadter & Sander, 2013)). وَمَا يُمَيِّزُ العَرَبِيَّةَ هُوَ أَنَّهَا تَجْعَلُ مِنْ هَذِهِ العَمَلِيَّةِ العَقْلِيَّةِ العُلْيَا جُزْءًا مِنْ مُمَارَسَتِهَا اليَوْمِيَّةِ. وَلَقَدْ كَانَ **ابْنُ جِنِّي** ((**ابن جنّي** 1999))، فِي كِتَابِهِ "الخَصَائِصِ"، مِنْ أَعْمَقِ مَنْ أَدْرَكُوا هَذَا البُعْدَ العَقْلَانِيَّ لِلُّغَةِ. فَقَدْ بَنَى فَلْسَفَتَهُ اللُّغَوِيَّةَ عَلَى أَنَّ "أَكْثَرَ اللُّغَةِ قِيَاسٌ"، مُعْتَبِرًا القِيَاسَ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ اللُّغَةَ نِظَامٌ مَنْطِقِيٌّ وَلَيْسَتْ مُجَرَّدَ مَجْمُوعَةٍ مِنَ المُوَاضَعَاتِ الاعْتِبَاطِيَّةِ.

إِنَّ هَاتَيْنِ المَهَارَتَيْنِ المُتَضَافِرَتَيْنِ —**تَجْرِيدُ الأَصْلِ وَتَطْبِيقُ القِيَاسِ**— تُشَكِّلَانِ مَعًا مَلَامِحَ "**العَقْلِيَّةِ الاشْتِقَاقِيَّةِ**": عَقْلِيَّةٌ تَمِيلُ بِطَبِيعَتِهَا إِلَى تَجَاوُزِ الجُزْئِيِّ لِلْبَحْثِ عَنِ الكُلِّيِّ، وَتَتَجَاوَزُ الظَّاهِرَ لِلْبَحْثِ عَنِ المَبْدَأِ، وَتَتَجَاوَزُ الفُرُوعَ لِلْبَحْثِ عَنِ الأُصُولِ وَالعِلَلِ.

تَرْجَمَةُ العَقْلِيَّةِ: الأَصْلُ وَالعِلَّةُ كَمَفَاهِيمَ مِحْوَرِيَّةٍ فِي الفِكْرِ الإِسْلَامِيِّ

إِنَّ الدَّلِيلَ الأَقْوَى عَلَى تَأْثِيرِ هَذِهِ "العَادَةِ العَقْلِيَّةِ" اللُّغَوِيَّةِ هُوَ "تَرْجَمَتُهَا" بِشَكْلٍ شِبْهِ حَرْفِيٍّ إِلَى المَنْهَجِيَّةِ المَعْرِفِيَّةِ الَّتِي هَيْمَنَتْ عَلَى العُلُومِ الإِسْلَامِيَّةِ التَّقْلِيدِيَّةِ. لَقَدْ أَصْبَحَتْ ثُنَائِيَّةُ "**الأَصْلِ وَالفَرْعِ**" هِيَ النَّمُوذَجَ الحَاكِمَ لِتَنْظِيمِ المَعْرِفَةِ بِأَكْمَلِهَا.

1. مِحْوَرِيَّةُ "الأَصْلِ" فِي المَنْظُومَةِ المَعْرِفِيَّةِ:

يُمْكِنُ وَصْفُ الفِكْرِ الإِسْلَامِيِّ بِأَكْمَلِهِ بِأَنَّهُ "فِكْرٌ أُصُولِيٌّ"، لَا بِمَعْنَى التَّشَدُّدِ، بَلْ بِمَعْنَى أَنَّهُ مَهْوُوسٌ مَنْهَجِيًّا بِالْبَحْثِ عَنِ "الأُصُولِ" وَتَأْسِيسِ المَعْرِفَةِ عَلَيْهَا.

- **فِي عِلْمِ أُصُولِ الفِقْهِ:** يُعَدُّ "**الأَصْلُ**" هُوَ الرُّكْنَ الأَوَّلَ مِنْ أَرْكَانِ القِيَاسِ، وَيُشِيرُ حَصْرًا إِلَى النَّصِّ المُؤَسِّسِ (القُرْآنُ وَالسُّنَّةُ)، الَّذِي يُعَدُّ المَصْدَرَ الوَحِيدَ لِلشَّرْعِيَّةِ.
- **فِي عِلْمِ أُصُولِ الدِّينِ (الكَلَامِ):** يُعَدُّ "**الأَصْلُ**" الأَعْلَى هُوَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَتَدُورُ كُلُّ المُحَاجَجَاتِ حَوْلَ إِثْبَاتِ وُجُودِ هَذَا الأَصْلِ وَصِفَاتِهِ مِنْ خِلَالِ النَّظَرِ فِي "فُرُوعِهِ" (مَخْلُوقَاتِهِ).
- **فِي عِلْمِ النَّحْوِ:** يُعَدُّ "**الأَصْلُ**" هُوَ المَبْدَأَ التَّفْسِيرِيَّ الأَسَاسِيَّ، فَيُقَالُ إِنَّ الرَّفْعَ أَصْلٌ فِي الأَسْمَاءِ، وَإِنَّ الفِعْلَ أَصْلٌ فِي العَمَلِ.

هَذَا التَّرْكِيزُ المُكَثَّفُ عَلَى "الأَصْلِ" كَنُقْطَةِ انْطِلَاقٍ وَمَرْجِعٍ نِهَائِيٍّ هُوَ التَّجَلِّي المَعْرِفِيُّ المُبَاشِرُ لِمِحْوَرِيَّةِ "الجَذْرِ" فِي البِنْيَةِ اللُّغَوِيَّةِ.

2. البَحْثُ عَنِ "العِلَّةِ" كَمُهِمَّةٍ مَعْرِفِيَّةٍ عُلْيَا:

إِذَا كَانَتِ المَعْرِفَةُ تَقُومُ عَلَى رَبْطِ الفُرُوعِ بِالأُصُولِ، فَإِنَّ "الرَّابِطَ" نَفْسَهُ يُصْبِحُ مَوْضُوعًا مِحْوَرِيًّا لِلْبَحْثِ. وَهَذَا الرَّابِطُ هُوَ **"العِلَّةُ"**. وَكَمَا يُوَضِّحُ وَائِل حَلَّاق بِشَكْلٍ مُفَصَّلٍ، فَإِنَّ اسْتِنْبَاطَ **"العِلَّةِ"** (ratio legis) هُوَ قَلْبُ الاجْتِهَادِ الفِقْهِيِّ وَأَصْعَبُ مَرَاحِلِهِ ((Hallaq, 1997)). فَالْعِلَّةُ هِيَ "القَانُونُ" أَوِ "المَبْدَأُ" المُجَرَّدُ الَّذِي يَكْمُنُ وَرَاءَ الحُكْمِ الجُزْئِيِّ. إِنَّهَا المُكَافِئُ الوَظِيفِيُّ التَّامُّ لِـ **"الوَزْنِ الصَّرْفِيِّ"** فِي اللُّغَةِ. فَكَمَا أَنَّ الوَزْنَ هُوَ القَاعِدَةُ المُجَرَّدَةُ الَّتِي تَشْرَحُ "عِلَّةَ" تَحَوُّلِ الجَذْرِ إِلَى صِيغَةٍ مُعَيَّنَةٍ، كَذَلِكَ العِلَّةُ هِيَ القَاعِدَةُ المُجَرَّدَةُ الَّتِي تَشْرَحُ "سَبَبَ" الحُكْمِ الشَّرْعِيِّ.

لَقَدْ أَصْبَحَتْ مَنْهَجِيَّةُ البَحْثِ عَنِ العِلَلِ هِيَ المَنْهَجِيَّةَ العِلْمِيَّةَ بَامْتِيَازٍ فِي الفِكْرِ الإِسْلَامِيِّ. إِنَّهَا تَجْسِيدٌ مُبَاشِرٌ لِعَقْلِيَّةٍ لُغَوِيَّةٍ تَدَرَّبَتْ عَلَى إِدْرَاكِ "الأَوْزَانِ" وَ"القَوَاعِدِ" الخَفِيَّةِ وَرَاءَ الأَلْفَاظِ الظَّاهِرَةِ.

النَّمُوذَجُ المُقَابِلُ: العَقْلِيَّةُ التَّصْنِيفِيَّةُ وَمَنْطِقُ الحُدُودِ

لِكَيْ نُدْرِكَ خُصُوصِيَّةَ وَأَصَالَةَ "العَقْلِيَّةِ الاشْتِقَاقِيَّةِ"، يَجِبُ أَنْ نَضَعَهَا مُجَدَّدًا فِي مُقَابَلِ النَّمُوذَجِ المُغَايِرِ الَّذِي سَادَ فِي الفِكْرِ الإِغْرِيقِيِّ، وَهُوَ **"العَقْلِيَّةُ التَّصْنِيفِيَّةُ"**.

كَمَا بَيَّنَّا، فَإِنَّ البِنْيَةَ التَّرْكِيبِيَّةَ لِلُّغَةِ الإِغْرِيقِيَّةِ تُدَرِّبُ العَقْلَ عَلَى **التَّحْلِيلِ** (تَفْكِيكِ المُرَكَّبَاتِ إِلَى أَجْزَائِهَا) وَ**التَّصْنِيفِ** (اسْتِخْدَامِ اللَّوَاصِقِ كَبِطَاقَاتٍ فِئَوِيَّةٍ). هَذِهِ العَقْلِيَّةُ لَا تَبْحَثُ عَنِ "الأَصْلِ" المُشْتَرَكِ، بَلْ تَبْحَثُ

عَنِ "الحَدِّ" الفَاصِلِ. السُّؤَالُ لَيْسَ "مِنْ أَيْنَ أَتَى؟"، بَلْ "مَا هُوَ؟ وَكَيْفَ يَخْتَلِفُ عَنْ غَيْرِهِ؟".

وَقَدْ تَجَلَّتْ هَذِهِ العَقْلِيَّةُ بِأَكْمَلِ صُوَرِهَا فِي **المَنْطِقِ الأَرِسْطِيِّ**، الَّذِي يُمَثِّلُ مَشْرُوعًا هَائِلًا لِتَصْنِيفِ الوُجُودِ وَتَحْدِيدِهِ. فَمَنْهَجُ التَّعْرِيفِ بِالْجِنْسِ وَالفَصْلِ هُوَ آلِيَّةٌ لِرَسْمِ الحُدُودِ الدَّقِيقَةِ بَيْنَ المَفَاهِيمِ. وَ"المَقُولَاتُ" هِيَ الفِئَاتُ الكُبْرَى الَّتِي يُصَنَّفُ فِيهَا كُلُّ شَيْءٍ ((Barnes, 1995). إِنَّهَا عَقْلِيَّةٌ تَجِدُ اليَقِينَ فِي "التَّقْسِيمِ" الصَّحِيحِ، لَا فِي "الرَّدِّ" الصَّحِيحِ.

خُلَاصَةٌ: اللِّسَانُ كَمَنْهَجٍ لِلْمَعْرِفَةِ

فِي خِتَامِ هَذَا التَّحْلِيلِ، نَخْلُصُ إِلَى أَنَّ المُدَاوَمَةَ المُسْتَمِرَّةَ وَغَيْرَ الوَاعِيَةَ عَلَى مُمَارَسَةِ الاشْتِقَاقِ اللُّغَوِيِّ فِي العَرَبِيَّةِ قَدْ سَاهَمَتْ بِشَكْلٍ فَعَّالٍ فِي خَلْقِ وَتَرْسِيخِ **"عَقْلِيَّةٍ اشْتِقَاقِيَّةٍ"** فَرِيدَةٍ. هَذِهِ العَادَةُ العَقْلِيَّةُ، الَّتِي تُعْطِي الأَوْلَوِيَّةَ لِلْبَحْثِ عَنِ **الأَصْلِ** (al-aṣl) الثَّابِتِ وَ**العِلَّةِ** (al-ʿillah) المُشْتَرَكَةِ وَرَاءَ الظَّوَاهِرِ المُتَغَيِّرَةِ (**الفُرُوعِ**)، لَمْ تَبْقَ حَبِيسَةَ نِطَاقِ اللُّغَةِ، بَلْ "تَسَرَّبَتْ" لِتُصْبِحَ النَّمُوذَجَ الإِدْرَاكِيَّ وَالمَنْهَجِيَّةَ المَعْرِفِيَّةَ المُهَيْمِنَةَ الَّتِي شَكَّلَتْ بُنْيَةَ العُلُومِ الإِسْلَامِيَّةِ التَقْلِيدِيَّةِ، مِنَ الفِقْهِ إِلَى اللَّاهُوتِ.

إِنَّ هَذَا يُثْبِتُ أَنَّ اللِّسَانَ أَكْثَرُ مِنْ مُجَرَّدِ أَدَاةٍ؛ إِنَّهُ مَدْرَسَةٌ لِلْعَقْلِ وَحَاضِنٌ لِلْمَنْهَجِ. فَالطَّرِيقَةُ الَّتِي نُنَظِّمُ بِهَا أَصْوَاتَنَا وَكَلِمَاتِنَا تُرَشِّحُ الطَّرِيقَةَ الَّتِي نُنَظِّمُ بِهَا أَفْكَارَنَا وَعَالَمَنَا.

الفَصْلُ الرَّابِعُ: العَقْلِيَّةُ التَّحْلِيلِيَّةُ

كَيْفَ يُؤَسِّسُ التَّرْكِيبُ اللُّغَوِيُّ لِمَنْهَجٍ مَعْرِفِيٍّ يَقُومُ عَلَى الفَصْلِ وَالتَّصْنِيفِ؟

مُقَدِّمَةٌ: اللِّسَانُ كَبَانٍ لِلْعَقْلِ

يَقُومُ هَذَا الفَصْلُ بِتَقْدِيمِ النَّمُوذَجِ المُقَابِلِ لِـ "**العَقْلِيَّةِ الاشْتِقَاقِيَّةِ**" الَّتِي تَمَّ تَحْلِيلُهَا سَابِقًا، حَيْثُ نَنْتَقِلُ لِتَشْرِيحِ **"العَقْلِيَّةِ التَّحْلِيلِيَّةِ"** (The Analytical Mindset) الَّتِي نَرَى أَنَّهَا تَجِدُ جُذُورَهَا العَمِيقَةَ فِي البِنْيَةِ "التَّرْكِيبِيَّةِ-التَّجْمِيعِيَّةِ" لِلِسَانِ الإِغْرِيقِيِّ. فَإِذَا كَانَتِ العَقْلِيَّةُ الأُولَى تَقُومُ عَلَى مَنْطِقِ "**الوَصْلِ وَالرَّدِّ إِلَى الأَصْلِ**"، فَإِنَّ هَذِهِ العَقْلِيَّةَ الثَّانِيَةَ تَقُومُ عَلَى مَنْطِقِ **"الفَصْلِ وَالوَضْعِ فِي فِئَةٍ"**. تَقُومُ أُطْرُوحَتُنَا عَلَى أَنَّ المُدَاوَمَةَ المُسْتَمِرَّةَ عَلَى بِنَاءِ المَعْنَى وَفَهْمِهِ مِنْ خِلَالِ آلِيَّاتِ التَّرْكِيبِ المَزْجِيِّ وَاللَّصْقِ تُرَسِّخُ "عَادَةً عَقْلِيَّةً" تَمِيلُ بِشَكْلٍ أَسَاسِيٍّ إِلَى **التَّحْلِيلِ** (Analysis)، **وَالتَّصْنِيفِ** (Classification)، **وَتَحْدِيدِ الفُرُوقِ وَالحُدُودِ** (Differentiation).

سَيُبَرْهِنُ هَذَا الفَصْلُ عَلَى أَنَّ هَذِهِ العَقْلِيَّةَ التَّحْلِيلِيَّةَ، الَّتِي تَغَذَّتْ مِنْ بِنْيَةِ اللِّسَانِ الإِغْرِيقِيِّ، قَدْ وَجَدَتْ تَجْسِيدَهَا الأَرْقَى وَتَقْنِينَهَا الأَكْمَلَ فِي المَشْرُوعِ الفَلْسَفِيِّ وَالمَنْطِقِيِّ لِأَرِسْطُو. سَنَبْدَأُ بِتَحْلِيلِ كَيْفِيَّةِ عَمَلِ آلِيَّاتِ التَّرْكِيبِ وَاللَّصْقِ كَـ "**تَدْرِيبٍ إِدْرَاكِيٍّ**" عَلَى التَّحْلِيلِ وَالتَّصْنِيفِ. ثُمَّ نَنْتَقِلُ

لِنُبَيِّنَ كَيْفَ أَنَّ المَنْطِقَ الأَرِسْطِيَّ، بِأَدَوَاتِهِ المِحْوَرِيَّةِ كَالمَقُولَاتِ وَالتَّعْرِيفِ بِالْجِنْسِ وَالفَصْلِ، لَيْسَ إِلَّا "صَوْغًا مُنَظَّمًا" لِهَذِهِ العَقْلِيَّةِ اللُّغَوِيَّةِ. وَفِي خِتَامِ الفَصْلِ، سَنُقَدِّمُ مُقَارَنَةً مُكَثَّفَةً بَيْنَ "**مَنْطِقِ الوَصْلِ الاشْتِقَاقِيِّ**" وَ"**مَنْطِقِ الفَصْلِ التَّحْلِيلِيِّ**"، لِنُؤَكِّدَ مُجَدَّدًا عَلَى الدَّوْرِ الحَاسِمِ الَّذِي يَلْعَبُهُ اللِّسَانُ فِي تَشْكِيلِ "مِعْمَارِ" العَقْلِ.

مِنَ اللِّسَانِ إِلَى الذِّهْنِ: التَّرْكِيبُ كَتَدْرِيبٍ عَلَى التَّحْلِيلِ

إِنَّ اسْتِخْدَامَ اللُّغَةِ اليَوْمِيَّ هُوَ "تَدْرِيبٌ عَقْلِيٌّ" مُكَثَّفٌ، وَتَفْرِضُ بِنْيَةُ اللِّسَانِ الإِغْرِيقِيِّ عَلَى النَّاطِقِ بِهِ نَوْعًا خَاصًّا مِنَ التَّدْرِيبِ يَتَمَحْوَرُ حَوْلَ التَّحْلِيلِ وَالتَّصْنِيفِ. وَتَتَجَلَّى هَذِهِ العَمَلِيَّةُ فِي آلِيَّتَيْنِ لُغَوِيَّتَيْنِ مِحْوَرِيَّتَيْنِ:

1. التَّرْكِيبُ المَزْجِيُّ (Compounding) كَفِعْلِ تَحْلِيلٍ مُدْمَجٍ:

كَمَا بَيَّنَّا، فَإِنَّ الآلِيَّةَ الأَهَمَّ لِإِنْتَاجِ المُعْجَمِ الفِكْرِيِّ الإِغْرِيقِيِّ هِيَ التَّرْكِيبُ المَزْجِيُّ. وَهَذِهِ الآلِيَّةُ هِيَ، فِي جَوْهَرِهَا، فِعْلُ **تَحْلِيلٍ** مُسْبَقٍ. فَلِتَكْوِينِ مُصْطَلَحٍ لِمَفْهُومٍ مُرَكَّبٍ، يَقُومُ اللِّسَانُ بِتَحْلِيلِ هَذَا المَفْهُومِ إِلَى مُكَوِّنَيْهِ الأَسَاسِيَّيْنِ ثُمَّ يَجْمَعُهُمَا فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ. فَكَلِمَةُ philosophia هِيَ نِتَاجُ تَحْلِيلِ "الفَلْسَفَةِ" إِلَى مُكَوِّنَيْهَا: "الحُبِّ" (*philos*) وَ"الحِكْمَةِ" (*sophia*). وَكَذَلِكَ كَلِمَةُ geōmetria هِيَ نِتَاجُ تَحْلِيلِ "الهَنْدَسَةِ" إِلَى "الأَرْضِ" (*gē*) وَ"القِيَاسِ" (*metron*).

إِنَّ العَقْلَ الَّذِي يَعْتَادُ عَلَى بِنَاءِ وَفَهْمِ كَلِمَاتِهِ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ التَّجْمِيعِيَّةِ (A + B = C) هُوَ عَقْلٌ يَتَدَرَّبُ بِاسْتِمْرَارٍ عَلَى رُؤْيَةِ الكُلِّ المُعَقَّدِ كَمَجْمُوعٍ لِأَجْزَاءٍ أَبْسَطَ يُمْكِنُ تَحْلِيلُهَا وَفَصْلُهَا. إِنَّهَا تُؤَسِّسُ لِعَقْلِيَّةٍ "ذَرِّيَّةٍ" (Atomistic) نِسْبِيًّا فِي التَّعَامُلِ مَعَ المَفَاهِيمِ.

2. **اللَّصْقُ** (Affixation) **كَفِعْلِ تَصْنِيفٍ:**

تَعْمَلُ الآلِيَّةُ الصَّرْفِيَّةُ الثَّانِيَةُ، وَهِيَ اسْتِخْدَامُ السَّوَابِقِ وَاللَّوَاحِقِ، كَأَدَاةِ **تَصْنِيفٍ** فَعَّالَةٍ. فَإِضَافَةُ لَاحِقَةٍ مُعَيَّنَةٍ إِلَى أَصْلِ كَلِمَةٍ مَا هُوَ أَشْبَهُ بِوَضْعِ "بِطَاقَةِ تَصْنِيفٍ" عَلَيْهَا لِتَحْدِيدِ انْتِمَائِهَا الفِئَوِيِّ. وَقَدْ طَوَّرَتِ الإِغْرِيقِيَّةُ نِظَامًا غَنِيًّا مِنْ هَذِهِ اللَّوَاحِقِ التَّصْنِيفِيَّةِ ((Smyth, 1920)):

- **اللَّاحِقَةُ** -*logia*: تَضَعُ الكَلِمَةَ فِي فَئَةِ **"عِلْمٍ أَوْ دِرَاسَةِ شَيْءٍ مَا"** (مِثْلُ: *bio-logia*، *theo-logia*).
- **اللَّاحِقَةُ** -*ikos*: تَضَعُ الكَلِمَةَ فِي فَئَةِ **"مَا هُوَ مُتَعَلِّقٌ بِـ"** (مِثْلُ: *phys-ikos*، أَيْ مَا هُوَ مُتَعَلِّقٌ بِالطَّبِيعَةِ).
- **اللَّاحِقَةُ** -*sis*: تَضَعُ الكَلِمَةَ فِي فَئَةِ **"عَمَلِيَّةِ الفِعْلِ"** (مِثْلُ: *gen-esis*، أَيْ عَمَلِيَّةُ التَّكْوِينِ).
- **اللَّاحِقَةُ** -*ma*: تَضَعُ الكَلِمَةَ فِي فَئَةِ **"نَتِيجَةِ الفِعْلِ"** (مِثْلُ: *prag-ma*، أَيْ الشَّيْءُ المَفْعُولُ).

إِنَّ هَذَا النِّظَامَ يُدَرِّبُ العَقْلَ عَلَى التَّفْكِيرِ بِاسْتِخْدَامِ الفِئَاتِ وَالأَصْنَافِ، وَعَلَى طَرْحِ سُؤَالٍ: "**فِي أَيِّ صُنْدُوقٍ يَجِبُ وَضْعُ هَذَا المَفْهُومِ؟**". إِنَّهَا آلِيَّةٌ تُؤَسِّسُ لِمَنْطِقٍ يَقُومُ عَلَى التَّنْظِيمِ الهَرَمِيِّ لِلمَعْرِفَةِ. فَالعَقْلِيَّةُ النَّاتِجَةُ عَنْ هَاتَيْنِ الآلِيَّتَيْنِ هِيَ عَقْلِيَّةٌ تَحْلِيلِيَّةٌ-تَصْنِيفِيَّةٌ بِامْتِيَازٍ، تَسْعَى لِفَهْمِ العَالَمِ مِنْ خِلَالِ تَفْكِيكِهِ إِلَى أَجْزَائِهِ وَتَصْنِيفِ هَذِهِ الأَجْزَاءِ فِي فَئَاتٍ مُنْضَبِطَةٍ.

تَجَلِّيَاتُ العَقْلِيَّةِ التَّحْلِيلِيَّةِ فِي الفِكْرِ الإِغْرِيقِيِّ

لَمْ تَبْقَ هَذِهِ العَقْلِيَّةُ التَّحْلِيلِيَّةُ-التَّصْنِيفِيَّةُ مُجَرَّدَ "عَادَةٍ" لُغَوِيَّةٍ، بَلْ

وَجَدَتْ تَجْسِيدَهَا الأَسْمَى وَتَقْنِينَهَا الأَكْمَلَ فِي **المَشْرُوعِ المَنْطِقِيِّ لِأَرِسْطُو**، الَّذِي يُمْكِنُ اعْتِبَارُهُ "النَّحْوَ الأَعْلَى" لِهَذَا النَّمَطِ مِنَ التَّفْكِيرِ.

1. المَقُولَاتُ الأَرِسْطِيَّةُ كَذِرْوَةٍ لِلتَّصْنِيفِ:

يُمَثِّلُ كِتَابُ **"المَقُولَاتِ"** (Kategoriai) لِأَرِسْطُو المَشْرُوعَ الأَكْثَرَ طُمُوحًا فِي تَارِيخِ الفِكْرِ لِتَصْنِيفِ الوُجُودِ بِأَكْمَلِهِ. فَالْمَقُولَاتُ العَشْرُ هِيَ الفِئَاتُ الكُبْرَى الَّتِي يُفْتَرَضُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِي الوَاقِعِ يَنْدَرِجُ تَحْتَهَا. إِنَّهَا مُحَاوَلَةٌ لِخَلْقِ "نِظَامِ تَصْنِيفٍ" شَامِلٍ وَمَانِعٍ، يُشْبِهُ تَمَامًا العَقْلِيَّةَ الَّتِي تَقُومُ عَلَيْهَا آلِيَّةُ اللَّصْقِ الصَّرْفِيِّ. إِنَّهَا تُجَسِّدُ الهَوَسَ المَنْهَجِيَّ بِوَضْعِ كُلِّ شَيْءٍ فِي "مَكَانِهِ" الصَّحِيحِ دَاخِلَ هَرَمٍ مَعْرِفِيٍّ مُنَظَّمٍ.

2. التَّعْرِيفُ بِالْجِنْسِ وَالفَصْلِ كَتَقْنِينٍ لِلتَّحْلِيلِ:

يَصِلُ هَذَا المَنْطِقُ إِلَى ذِرْوَتِهِ فِي آلِيَّةِ **التَّعْرِيفِ بِالْجِنْسِ وَالفَصْلِ**، الَّتِي تُمَثِّلُ قَلْبَ المَنْهَجِيَّةِ الأَرِسْطِيَّةِ. فَلِتَعْرِيفِ مَفْهُومٍ مَا، يَقُومُ أَرِسْطُو بِتَحْلِيلِهِ إِلَى مُكَوِّنَيْهِ الأَسَاسِيَّيْنِ: فَئَتُهُ العَامَّةُ (**الجِنْسُ**) وَخَاصِّيَّتُهُ المُمَيِّزَةُ (**الفَصْلُ**). هَذِهِ العَمَلِيَّةُ (الجِنْسُ + الفَصْلُ = التَّعْرِيفُ) هِيَ، كَمَا ذَكَرْنَا، المُكَافِئُ المَنْطِقِيُّ المُبَاشِرُ لِعَمَلِيَّةِ التَّرْكِيبِ المَزْجِيِّ فِي اللُّغَةِ. إِنَّهَا مَنْهَجِيَّةٌ تَقُومُ عَلَى **الفَصْلِ وَالتَّحْدِيدِ وَرَسْمِ الحُدُودِ**، وَهِيَ الصُّورَةُ المُضَادَّةُ تَمَامًا لِمَنْهَجِيَّةِ الوَصْلِ وَالرَّدِّ إِلَى الأَصْلِ ((Barnes, 1995)).

لَمْ يَقْتَصِرْ هَذَا المَنْهَجُ عَلَى المَنْطِقِ، بَلْ أَصْبَحَ هُوَ الأَدَاةَ الَّتِي اسْتَخْدَمَهَا أَرِسْطُو فِي بِنَاءِ عُلُومِهِ الطَّبِيعِيَّةِ. فَأَعْمَالُهُ فِي عِلْمِ الأَحْيَاءِ، مِثْلُ "تَارِيخِ الحَيَوَانِ"، هِيَ فِي جَوْهَرِهَا مَشْرُوعٌ ضَخْمٌ لِـ **تَصْنِيفِ** العَالَمِ الحَيِّ وَفْقَ هَذِهِ المَبَادِئِ التَّحْلِيلِيَّةِ ((Lloyd, 1999)).

النَّمُوذَجُ المُقَابِلُ: العَقْلِيَّةُ الاشْتِقَاقِيَّةُ وَمَنْطِقُ الوَصْلِ

لِتَكْتَمِلَ الصُّورَةُ، يَجِبُ أَنْ نُذَكِّرَ بِالنَّمُوذَجِ المُقَابِلِ. فَالْعَقْلِيَّةُ الاشْتِقَاقِيَّةُ الَّتِي تُرَسِّخُهَا العَرَبِيَّةُ لَا تَهْتَمُّ أَوَّلًا بِتَصْنِيفِ الأَشْيَاءِ، بَلْ بِاكْتِشَافِ **"صِلَاتِ القَرَابَةِ"** الدَّلَالِيَّةِ بَيْنَهَا. السُّؤَالُ لَيْسَ "كَيْفَ يَخْتَلِفُ هَذَا عَنْ ذَاكَ؟"، بَلْ "كَيْفَ يَرْتَبِطُ هَذَا بِذَاكَ، وَإِلَى أَيِّ أَصْلٍ يَعُودَانِ؟".

إِنَّهَا مَنْهَجِيَّةٌ **"تَرْكِيبِيَّةٌ"** (Synthetic) بِمَعْنَى أَنَّهَا تَسْعَى لِتَرْكِيبِ وَجَمْعِ الظَّوَاهِرِ تَحْتَ مَبْدَأٍ وَاحِدٍ. وَقَدْ تَجَلَّتْ هَذِهِ العَقْلِيَّةُ، كَمَا رَأَيْنَا، فِي عِلْمِ **أُصُولِ الفِقْهِ** الَّذِي يَقُومُ بِالْكَامِلِ عَلَى فِكْرَةِ **القِيَاسِ**، وَهُوَ فَنُّ اكْتِشَافِ "العِلَلِ" المُشْتَرَكَةِ الَّتِي تَصِلُ بَيْنَ الأَصْلِ وَالفَرْعِ. إِنَّهَا عَقْلِيَّةٌ تَرَى العَالَمَ كَشَبَكَةٍ مُتَرَابِطَةٍ، لَا كَخِزَانَةٍ مُقَسَّمَةٍ.

خُلَاصَةٌ: أَثَرُ البِنْيَةِ عَلَى نَمَطِ التَّفْكِيرِ

فِي خِتَامِ هَذَا التَّحْلِيلِ، نَخْلُصُ إِلَى أَنَّ المُدَاوَمَةَ المُسْتَمِرَّةَ عَلَى اسْتِخْدَامِ آلِيَّاتِ التَّرْكِيبِ وَاللَّصْقِ فِي اللِّسَانِ الإِغْرِيقِيِّ قَدْ سَاهَمَتْ بِشَكْلٍ فَعَّالٍ فِي خَلْقِ وَتَرْسِيخِ **"عَقْلِيَّةٍ تَحْلِيلِيَّةٍ"** فَرِيدَةٍ. هَذِهِ العَادَةُ العَقْلِيَّةُ، الَّتِي تُعْطِي الأَوْلَوِيَّةَ لِتَفْكِيكِ الكُلِّ، وَتَصْنِيفِ الأَجْزَاءِ، وَتَحْدِيدِ الفُرُوقِ، وَجَدَتْ تَجْسِيدَهَا الأَرْقَى فِي المَنْطِقِ الصُّورِيِّ لِأَرِسْطُو وَفِي العُلُومِ التَّصْنِيفِيَّةِ لِلْحَضَارَةِ الهِلِّينِيَّةِ.

وَيَقِفُ هَذَا النَّمُوذَجُ عَلَى طَرَفِ نَقِيضٍ مِنَ "العَقْلِيَّةِ الاشْتِقَاقِيَّةِ" الَّتِي رَسَّخَهَا اللِّسَانُ العَرَبِيُّ، وَالَّتِي تُعْطِي الأَوْلَوِيَّةَ لِلْبَحْثِ عَنِ الأُصُولِ المُوَحِّدَةِ وَالعَلَاقَاتِ القِيَاسِيَّةِ. إِنَّ هَذَا يُثْبِتُ مَرَّةً أُخْرَى أَنَّ المَنْهَجَ المَعْرِفِيَّ الَّذِي تَسُودُهُ حَضَارَةٌ مَا لَيْسَ وَلِيدَ الصُّدْفَةِ، بَلْ هُوَ نِتَاجٌ مُعَقَّدٌ لِتَارِيخِهَا وَثَقَافَتِهَا، وَلَا سِيَّمَا، لِبِنْيَةِ اللِّسَانِ الَّذِي تُفَكِّرُ وَتُبْدِعُ بِهِ.

الفَصْلُ الخَامِسُ: نَمُوذَجٌ عَصَبِيٌّ-مَعْرِفِيٌّ مُقْتَرَحٌ

كَيْفَ تَنْحَتُ البِنْيَةُ الصَّرْفِيَّةُ مَسَارَاتِ الدِّمَاغِ؟

مُقَدِّمَةٌ: مِنَ اللِّسَانِ إِلَى الخَلِيَّةِ العَصَبِيَّةِ

يُمَثِّلُ هَذَا الفَصْلُ مُحَاوَلَةً لِبِنَاءِ جِسْرٍ بَيْنَ المُسْتَوَى الكَبِيرُ المَنْظُورِ لِلْحَضَارَةِ وَالفِكْرِ، وَالمُسْتَوَى الدَّقِيقُ المِجْهَرِيُّ لِلدَّوَائِرِ العَصَبِيَّةِ فِي الدِّمَاغِ. فَإِذَا كَانَتِ الفُصُولُ السَّابِقَةُ قَدْ أَسَّسَتْ لِوُجُودِ "عَقْلِيَّتَيْنِ" مُتَمَايِزَتَيْنِ —"اشْتِقَاقِيَّةٍ" فِي البِيئَةِ العَرَبِيَّةِ، وَ"تَحْلِيلِيَّةٍ" فِي البِيئَةِ الإِغْرِيقِيَّةِ— فَإِنَّ السُّؤَالَ المُلِحَّ يَبْقَى:

كَيْفَ تَتَجَذَّرُ هَذِهِ "العَقْلِيَّاتُ" فِي الوَاقِعِ المَادِّيِّ لِلْعَقْلِ البَشَرِيِّ؟

يَقْتَرِحُ هَذَا الفَصْلُ **نَمُوذَجًا عَصَبِيًّا-مَعْرِفِيًّا** (A Neuro-Cognitive Model) تَفْسِيرِيًّا، يَقُومُ عَلَى أَحْدَثِ النَّظَرِيَّاتِ فِي عِلْمِ الأَعْصَابِ الإِدْرَاكِيِّ وَاللِّسَانِيَّاتِ النَّفْسِيَّةِ.

تَقُومُ أُطْرُوحَتُنَا عَلَى أَنَّ "العَقْلِيَّاتِ" المُخْتَلِفَةَ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ تَفْضِيلَاتٍ فَلْسَفِيَّةٍ، بَلْ هِيَ نِتَاجُ "تَدْرِيبٍ" عَصَبِيٍّ مُكَثَّفٍ وَطَوِيلِ الأَمَدِ تَقُومُ بِهِ البِنْيَةُ الصَّرْفِيَّةُ لِلُّغَةِ الأُمِّ. بِشَكْلٍ أَكْثَرَ تَحْدِيدًا، سَنُبَرْهِنُ، بِالاسْتِنَادِ إِلَى نَظَرِيَّاتِ **المُرُونَةِ العَصَبِيَّةِ** (Neuroplasticity) وَنَمُوذَجِ **"الكَلِمَاتِ**

وَالقَوَاعِدِ" (Words and Rules Model)، عَلَى أَنَّ البِنْيَةَ الصَّرْفِيَّةَ العَرَبِيَّةَ "القَائِمَةَ عَلَى القَاعِدَةِ" تَقُومُ بِتَقْوِيَةٍ مُنْتَظِمَةٍ لِلدَّوَائِرِ العَصَبِيَّةِ المُرْتَبِطَةِ بِـ **"الذَّاكِرَةِ الإِجْرَائِيَّةِ"** (Procedural Memory). وَفِي المُقَابِلِ، فَإِنَّ البِنْيَةَ الصَّرْفِيَّةَ الإِغْرِيقِيَّةَ "الهَجِينَةَ" (القَائِمَةَ عَلَى القَوَاعِدِ وَالاسْتِثْنَاءَاتِ الكَثِيرَةِ) تَفْرِضُ حِمْلًا مُزْدَوَجًا عَلَى الدِّمَاغِ، مُتَطَلِّبَةً تَفْعِيلًا مُكَثَّفًا لِكُلٍّ مِنَ الذَّاكِرَةِ الإِجْرَائِيَّةِ وَ"الذَّاكِرَةِ التَّصْرِيحِيَّةِ" (Declarative Memory). هَذَا الاخْتِلَافُ فِي "اسْتِرَاتِيجِيَّةِ المُعَالَجَةِ" العَصَبِيَّةِ، كَمَا سَنُجَادِلُ، هُوَ مَا يُفَسِّرُ تَجَذُّرَ "عَقْلِيَّةٍ" مُعَيَّنَةٍ وَجَعْلَهَا المَسَارَ الإِدْرَاكِيَّ المُفَضَّلَ لَدَى أَبْنَاءِ كُلِّ حَضَارَةٍ.

الأُسُسُ العَصَبِيَّةُ لِلتَّكَيُّفِ اللُّغَوِيِّ: المُرُونَةُ وَالذَّاكِرَةُ

لِبِنَاءِ نَمُوذَجِنَا، يَجِبُ أَنْ نُؤَسِّسَهُ عَلَى ثَلَاثَةِ مَبَادِئَ مُسْتَقَرَّةٍ فِي عُلُومِ الدِّمَاغِ الحَدِيثَةِ:

1. المُرُونَةُ العَصَبِيَّةُ وَالتَّعَلُّمُ الهِبِّيُّ:

كَمَا ذَكَرْنَا سَابِقًا، لَيْسَ الدِّمَاغُ عُضْوًا سَاكِنًا، بَلْ هُوَ شَبَكَةٌ دِينَامِيكِيَّةٌ تَتَمَتَّعُ بِـ **"المُرُونَةِ"** (Plasticity)، أَيْ أَنَّ بِنْيَتَهَا وَوَظَائِفَهَا تَتَغَيَّرُ اسْتِجَابَةً لِلتَّجْرِبَةِ. الآلِيَّةُ الأَسَاسِيَّةُ لِهَذِهِ المُرُونَةِ هِيَ **التَّعَلُّمُ الهِبِّيُّ**، الَّذِي يَقُومُ عَلَى مَبْدَأِ "الخَلَايَا العَصَبِيَّةِ الَّتِي تَنْشَطُ مَعًا، تَتَشَابَكُ مَعًا" ((Hebb, 2002)). هَذَا يَعْنِي أَنَّ أَيَّ فِعْلٍ ذِهْنِيٍّ مُتَكَرِّرٍ (كَاسْتِخْدَامِ قَاعِدَةٍ لُغَوِيَّةٍ) يُؤَدِّي إِلَى تَقْوِيَةٍ فِيزْيَائِيَّةٍ لِلْمَسَارِ العَصَبِيِّ المَسْؤُولِ عَنْهُ مِنْ خِلَالِ عَمَلِيَّةٍ تُسَمَّى "التَّأْبِيدَ طَوِيلَ الأَمَدِ" (Long-Term Potentiation)، مِمَّا يَجْعَلُ هَذَا المَسَارَ أَسْرَعَ وَأَكْثَرَ كَفَاءَةً فِي المُسْتَقْبَلِ ((Kandel et al., 2000)).

2. نِظَامَا الذَّاكِرَةِ: التَّصْرِيحِيَّةُ وَالإِجْرَائِيَّةُ:

يُمَيِّزُ عِلْمُ الأَعْصَابِ بَيْنَ نَوْعَيْنِ رَئِيسَيْنِ مِنَ الذَّاكِرَةِ طَوِيلَةِ المَدَى، يَعْتَمِدَانِ عَلَى شَبَكَاتٍ عَصَبِيَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ:

- **الذَّاكِرَةُ التَّصْرِيحِيَّةُ** (Declarative Memory):

وَهِيَ ذَاكِرَةُ "**مَاذَا**" (knowing what). إِنَّهَا المَسْؤُولَةُ عَنْ تَخْزِينِ الحَقَائِقِ (مِثْلُ: "بَارِيسُ عَاصِمَةُ فَرَنْسَا") وَالأَحْدَاثِ الشَّخْصِيَّةِ. وَتَرْتَبِطُ هَذِهِ الذَّاكِرَةُ بِشَكْلٍ أَسَاسِيٍّ بِبِنًى فِي الفَصِّ الصُّدْغِيِّ الإِنْسِيِّ، وَخُصُوصًا "الحُصَيْنَ" (Hippocampus). فِي اللُّغَةِ، يُعْتَقَدُ أَنَّهَا "المُعْجَمُ الذِّهْنِيُّ" (Mental Lexicon) الَّذِي نُخَزِّنُ فِيهِ المُفْرَدَاتِ كَوَحَدَاتٍ مُسْتَقِلَّةٍ.

- **الذَّاكِرَةُ الإِجْرَائِيَّةُ** (Procedural Memory):

وَهِيَ ذَاكِرَةُ "**كَيْفَ**" (knowing how). إِنَّهَا المَسْؤُولَةُ عَنْ اكْتِسَابِ المَهَارَاتِ وَالعَادَاتِ الحَرَكِيَّةِ وَالإِدْرَاكِيَّةِ (مِثْلُ قِيَادَةِ الدَّرَّاجَةِ أَوِ العَزْفِ عَلَى البِيَانُو). وَهِيَ عَمَلِيَّةٌ ضِمْنِيَّةٌ وَغَيْرُ وَاعِيَةٍ فِي الغَالِبِ. تَرْتَبِطُ هَذِهِ الذَّاكِرَةُ بِشَبَكَةٍ عَصَبِيَّةٍ تَشْمَلُ "العُقَدَ القَاعِدِيَّةَ" (Basal Ganglia) وَالمِنَاطِقَ الحَرَكِيَّةَ فِي الفَصِّ الجَبْهِيِّ. فِي اللُّغَةِ، يُعْتَقَدُ أَنَّهَا "النِّظَامُ القَوَاعِدِيُّ" الَّذِي نُخَزِّنُ فِيهِ القَوَاعِدَ النَّحْوِيَّةَ وَالصَّرْفِيَّةَ.

3. نَظَرِيَّةُ "الكَلِمَاتِ وَالقَوَاعِدِ":

بِنَاءً عَلَى هَذَا التَّمْيِيزِ، قَدَّمَ سْتِيفِن بِنْكَر وَمَايْكِل أُولْمَان وَآخَرُونَ نَظَرِيَّةَ "الكَلِمَاتِ وَالقَوَاعِدِ" ((Pinker, 2015); (Ullman, 2004)). تَقْتَرِحُ هَذِهِ النَّظَرِيَّةُ أَنَّ هَذَيْنِ النِّظَامَيْنِ مِنَ الذَّاكِرَةِ يَتَوَافَقَانِ مَعَ طَرِيقَيْنِ لِمُعَالَجَةِ الصَّرْفِ: فَالْكَلِمَاتُ الشَّاذَّةُ وَغَيْرُ القِيَاسِيَّةِ (مِثْلُ *went* كَمَاضٍ لِـ *go*) يَتِمُّ حِفْظُهَا **كَوَحَدَاتٍ مُسْتَقِلَّةٍ** فِي الذَّاكِرَةِ التَّصْرِيحِيَّةِ ("الكَلِمَاتُ"). أَمَّا الكَلِمَاتُ القِيَاسِيَّةُ (مِثْلُ *walked*) فَيَتِمُّ تَوْلِيدُهَا عَبْرَ تَطْبِيقِ **قَاعِدَةٍ مُجَرَّدَةٍ** ("أَضِفْ -ed") فِي الذَّاكِرَةِ الإِجْرَائِيَّةِ ("القَوَاعِدُ"). وَالتَّوَازُنُ بَيْنَ اسْتِخْدَامِ هَذَيْنِ الطَّرِيقَيْنِ يَعْتَمِدُ عَلَى بِنْيَةِ اللُّغَةِ الأُمِّ.

تَطْبِيقُ النَّمُوذَجِ: تَحْلِيلٌ عَصَبِيٌّ-لُغَوِيٌّ مُقَارَنٌ

بِاسْتِخْدَامِ هَذَا الإِطَارِ النَّظَرِيِّ، يُمْكِنُنَا الآنَ أَنْ نُقَدِّمَ فَرَضِيَّةً حَوْلَ كَيْفِيَّةِ تَأْثِيرِ البِنْيَةِ الصَّرْفِيَّةِ لِكُلٍّ مِنَ العَرَبِيَّةِ وَالإِغْرِيقِيَّةِ عَلَى تَنْظِيمِ الدِّمَاغِ وَتَرْسِيخِ "عَقْلِيَّةٍ" مُعَيَّنَةٍ.

1. الدِّمَاغُ "القَاعِدِيُّ" العَرَبِيُّ (The Rule-Dominant Arabic Brain):

تَتَمَيَّزُ البِنْيَةُ الصَّرْفِيَّةُ لِلْعَرَبِيَّةِ، كَمَا بَيَّنَّا، بِدَرَجَةٍ عَالِيَةٍ جِدًّا مِنَ **الانْتِظَامِ وَالقِيَاسِيَّةِ**. فَنِظَامُ الجَذْرِ وَالوَزْنِ هُوَ نِظَامٌ شِبْهُ رِيَاضِيٍّ، وَعَدَدُ الشَّوَاذِّ فِيهِ قَلِيلٌ جِدًّا مُقَارَنَةً بِغِنَاهُ التَّوْلِيدِيِّ. هَذِهِ الخَاصِّيَّةُ تَجْعَلُ مُعَالَجَةَ الصَّرْفِ العَرَبِيِّ تَعْتَمِدُ بِشَكْلٍ شِبْهِ كَامِلٍ عَلَى **"طَرِيقِ القَوَاعِدِ"**.

- **المُهِمَّةُ الإِدْرَاكِيَّةُ:** لِفَهْمِ أَوْ إِنْتَاجِ أَيِّ كَلِمَةٍ مُشْتَقَّةٍ، يَجِبُ عَلَى الدِّمَاغِ أَنْ يَقُومَ بِعَمَلِيَّةٍ حِسَابِيَّةٍ مُسْتَمِرَّةٍ: عَزْلُ الجَذْرِ، وَالتَّعَرُّفُ عَلَى الوَزْنِ، وَتَرْكِيبُهُمَا.
- **الفَرَضِيَّةُ العَصَبِيَّةُ:** نَفْتَرِضُ أَنَّ هَذَا "التَّدْرِيبَ" المُكَثَّفَ وَالمُسْتَمِرَّ عَلَى تَطْبِيقِ القَوَاعِدِ يُؤَدِّي إِلَى **تَقْوِيَةٍ وَتَوْسِيعٍ وَتَخْصِيصٍ** لِلدَّوَائِرِ العَصَبِيَّةِ المُرْتَبِطَةِ بِـ **الذَّاكِرَةِ الإِجْرَائِيَّةِ** (العُقَدُ القَاعِدِيَّةُ وَمِنْطَقَةُ بُرُوكَا). وَبِالتَّالِي، يُصْبِحُ "النِّظَامُ الإِجْرَائِيُّ" لَدَى النَّاطِقِ بِالعَرَبِيَّةِ شَدِيدَ الكَفَاءَةِ وَالنَّشَاطِ. وَتُشِيرُ بَعْضُ الدِّرَاسَاتِ الَّتِي اسْتَخْدَمَتِ التَّصْوِيرَ بِالرَّنِينِ المِغْنَاطِيسِيِّ الوَظِيفِيِّ (fMRI) عَلَى مُتَحَدِّثِي اللُّغَاتِ الجَذْرِيَّةِ إِلَى أَنَّ مُعَالَجَةَ الصَّرْفِ الجَذْرِيِّ تُنَشِّطُ بِالْفِعْلِ شَبَكَةً عَصَبِيَّةً مُمَيَّزَةً ((Boudelaa, S., & Marslen-Wilson, W. D., 2013)).

2. الدِّمَاغُ "الهَجِينُ" الإِغْرِيقِيُّ (The Hybrid Greek Brain):

عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الإِغْرِيقِيَّةَ لُغَةٌ تَصْرِيفِيَّةٌ غَنِيَّةٌ، إِلَّا أَنَّ نِظَامَهَا الصَّرْفِيَّ، خُصُوصًا فِي الأَفْعَالِ، يَتَّسِمُ بِدَرَجَةٍ عَالِيَةٍ مِنَ **الشُّذُوذِ وَ"التَّنَادُدِ"** (Suppletion)، حَيْثُ تُشْتَقُّ أَزْمِنَةٌ مُخْتَلِفَةٌ لِنَفْسِ الفِعْلِ مِنْ أُصُولٍ مُخْتَلِفَةٍ تَمَامًا.

- **المُهِمَّةُ الإِدْرَاكِيَّةُ:** تَتَطَلَّبُ مُعَالَجَةُ الصَّرْفِ الإِغْرِيقِيِّ مِنَ الدِّمَاغِ القِيَامَ بِـ "تَفَاوُضٍ" مُسْتَمِرٍّ بَيْنَ الطَّرِيقَيْنِ. فَعَلَيْهِ أَنْ يُطَبِّقَ القَوَاعِدَ القِيَاسِيَّةَ عَلَى الأَفْعَالِ المُنْتَظِمَةِ، وَلَكِنْ عَلَيْهِ أَيْضًا أَنْ **يَحْفَظَ قَائِمَةً ضَخْمَةً** مِنَ الأُصُولِ الرَّئِيسَةِ الشَّاذَّةِ لِلْأَفْعَالِ غَيْرِ المُنْتَظِمَةِ كَوَحَدَاتٍ مُسْتَقِلَّةٍ ((Smyth, 1920)).

- **الفَرَضِيَّةُ العَصَبِيَّةُ:** نَفْتَرِضُ أَنَّ هَذَا النِّظَامَ "الهَجِينَ" يَفْرِضُ حِمْلًا ثَقِيلًا عَلَى **كِلَا نِظَامَيِ الذَّاكِرَةِ**. فَهُوَ يَتَطَلَّبُ ذَاكِرَةً إِجْرَائِيَّةً قَوِيَّةً لِلتَّعَامُلِ مَعَ التَّصْرِيفَاتِ القِيَاسِيَّةِ، وَذَاكِرَةً تَصْرِيحِيَّةً وَاسِعَةً جِدًّا لِتَخْزِينِ القَائِمَةِ الهَائِلَةِ مِنَ "الكَلِمَاتِ" الشَّاذَّةِ. هَذِهِ الحَاجَةُ إِلَى "حِفْظِ المُفْرَدَاتِ" بِشَكْلٍ مُكَثَّفٍ تُقَرِّبُهُ مِنَ النَّمَاذِجِ اللُّغَوِيَّةِ الأَقَلِّ انْتِظَامًا.

مِنَ المَسَارِ العَصَبِيِّ إِلَى المَسَارِ الفِكْرِيِّ: فَرَضِيَّةُ "التَّدَفُّقِ الإِدْرَاكِيِّ"

الآنَ نَصِلُ إِلَى الخُطْوَةِ الأَخِيرَةِ وَالأَكْثَرِ أَهَمِّيَّةً فِي نَمُوذَجِنَا. نَقْتَرِحُ هُنَا فَرَضِيَّةَ **"التَّدَفُّقِ الإِدْرَاكِيِّ"** (Cognitive Spillover). تَقُولُ هَذِهِ الفَرَضِيَّةُ إِنَّهُ عِنْدَمَا يَتِمُّ تَقْوِيَةُ وَتَفْضِيلُ نِظَامٍ عَصَبِيٍّ-مَعْرِفِيٍّ مُعَيَّنٍ (كَالنِّظَامِ الإِجْرَائِيِّ القَائِمِ عَلَى القَوَاعِدِ) بِشَكْلٍ مُكَثَّفٍ مِنْ خِلَالِ التَّدْرِيبِ اللُّغَوِيِّ اليَوْمِيِّ، فَإِنَّ "الأُسْلُوبَ الإِدْرَاكِيَّ" المُرْتَبِطَ بِهَذَا النِّظَامِ يَمِيلُ إِلَى "التَّدَفُّقِ" أَوِ "الامْتِدَادِ" لِيُصْبِحَ هُوَ الأُسْلُوبَ المُفَضَّلَ لِحَلِّ المَشَاكِلِ فِي **مَجَالَاتٍ غَيْرِ لُغَوِيَّةٍ** أَيْضًا.

فِي حَالَةِ **العَرَبِيَّةِ**، فَإِنَّ "العَقْلِيَّةَ الاشْتِقَاقِيَّةَ" الَّتِي تَشَكَّلَتْ بِتَأْثِيرِ اللُّغَةِ (وَهِيَ عَقْلِيَّةٌ تَمِيلُ إِلَى تَجْرِيدِ الأُصُولِ وَتَطْبِيقِ القِيَاسِ) تَجِدُ تَطْبِيقًا مُبَاشِرًا فِي مَنْهَجِيَّةِ **أُصُولِ الفِقْهِ**. فَالبَحْثُ عَنِ "الأَصْلِ" وَ"العِلَّةِ" لَيْسَ مُجَرَّدَ خِيَارٍ فَلْسَفِيٍّ، بَلْ هُوَ اسْتِخْدَامٌ لِمَسَارٍ عَصَبِيٍّ-مَعْرِفِيٍّ أَصْبَحَ قَوِيًّا وَفَعَّالًا بِفِعْلِ التَّدْرِيبِ اللُّغَوِيِّ.

وَفِي حَالَةِ **الإِغْرِيقِيَّةِ**، فَإِنَّ العَقْلِيَّةَ "الهَجِينَةَ" الَّتِي تَتَعَامَلُ بِكَفَاءَةٍ مَعَ القَوَاعِدِ وَمَعَ قَوَائِمَ طَوِيلَةٍ مِنَ الحَالَاتِ الخَاصَّةِ، تُعَزِّزُ مَنْهَجًا **تَحْلِيلِيًّا-تَصْنِيفِيًّا** يَتَفَوَّقُ فِي تَفْكِيكِ الظَّوَاهِرِ وَوَضْعِهَا فِي فَئَاتٍ. وَهَذَا هُوَ بِالضَّبْطِ جَوْهَرُ المَنْهَجِيَّةِ الأَرِسْطِيَّةِ.

خُلَاصَةٌ: كَيْفَ تَنْحَتُ اللُّغَةُ مَسَارَاتِ التَّفْكِيرِ

فِي خِتَامِ هَذَا الفَصْلِ، نَكُونُ قَدْ قَدَّمْنَا نَمُوذَجًا عَصَبِيًّا-مَعْرِفِيًّا مُقْتَرَحًا يُحَاوِلُ تَفْسِيرَ العَلَاقَةِ العَمِيقَةِ بَيْنَ بِنْيَةِ اللُّغَةِ وَالأُسْلُوبِ المَعْرِفِيِّ. لَقَدِ افْتَرَضْنَا أَنَّ الطَّبِيعَةَ "القَاعِدِيَّةَ" المُهَيْمِنَةَ لِلصَّرْفِ العَرَبِيِّ تُؤَدِّي إِلَى تَقْوِيَةِ تَفْضِيلِيَّةٍ لِنِظَامِ "الذَّاكِرَةِ الإِجْرَائِيَّةِ" فِي الدِّمَاغِ، مِمَّا يُعَزِّزُ **"العَقْلِيَّةَ الاشْتِقَاقِيَّةَ"** القَائِمَةَ عَلَى القِيَاسِ وَالبَحْثِ عَنِ الأُصُولِ. وَفِي المُقَابِلِ، فَإِنَّ الطَّبِيعَةَ "الهَجِينَةَ" لِلصَّرْفِ الإِغْرِيقِيِّ، بِشَوَاذِّهِ الكَثِيرَةِ، تَفْرِضُ حِمْلًا مُزْدَوَجًا عَلَى الذَّاكِرَةِ التَّصْرِيحِيَّةِ وَالإِجْرَائِيَّةِ، مِمَّا يُعَزِّزُ **"العَقْلِيَّةَ التَّحْلِيلِيَّةَ"** القَائِمَةَ عَلَى التَّصْنِيفِ وَحِفْظِ الحَالَاتِ الخَاصَّةِ.

يُشِيرُ هَذَا النَّمُوذَجُ إِلَى أَنَّ البِنَى العَمِيقَةَ لِأَلْسِنَتِنَا الأُمِّ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ أَنْظِمَةٍ مُجَرَّدَةٍ، بَلْ هِيَ قُوًى فَعَّالَةٌ تَقُومُ بِشَكْلٍ فِعْلِيٍّ بِنَحْتِ المَسَارَاتِ العَصَبِيَّةِ لِأَدْمِغَتِنَا، وَبِالتَّالِي تُسَاهِمُ فِي تَشْكِيلِ "مِعْمَارِ" فِكْرِنَا وَهَنْدَسَةِ عُقُولِنَا.

الجُزْءُ الثَّالِثُ: التَّجَلِّيَاتُ الحَضَارِيَّةُ الكُبْرَى

بَعْدَ أَنْ قُمْنَا فِي الجُزْأَيْنِ السَّابِقَيْنِ بِتَشْرِيحِ "المِعْمَارِيَّاتِ اللُّغَوِيَّةِ" المُؤَسِّسَةِ لِكُلٍّ مِنَ اللِّسَانَيْنِ العَرَبِيِّ وَالإِغْرِيقِيِّ، وَبِاسْتِكْشَافِ الآثَارِ الإِدْرَاكِيَّةِ وَالعَصَبِيَّةِ المُحْتَمَلَةِ لَهَا فِي تَشْكِيلِ "عَقْلِيَّتَيْنِ" مُتَمَايِزَتَيْنِ، نَصِلُ الآنَ إِلَى مَرْحَلَةِ "الإِثْبَاتِ" وَ"التَّجَلِّي". فَفِي هَذَا الجُزْءِ، سَنَنْتَقِلُ مِنَ التَّحْلِيلِ البُنْيَوِيِّ وَالإِدْرَاكِيِّ إِلَى دِرَاسَةِ "المُنْتَجَاتِ المَعْرِفِيَّةِ" الأَكْثَرِ دَلَالَةً وَتَعْبِيرًا عَنْ عَبْقَرِيَّةِ كُلِّ حَضَارَةٍ. نَنْطَلِقُ مِنْ فَرَضِيَّةٍ مَفَادُهَا أَنَّ كُلَّ حَضَارَةٍ عَظِيمَةٍ تُنْتِجُ "عِلْمًا مِعْيَارِيًّا" أَوْ "مَنْهَجِيَّةً أُمًّا" (Master Methodology) تَكُونُ بِمَثَابَةِ التَّجْسِيدِ الأَرْقَى لِأُسْلُوبِهَا المَعْرِفِيِّ وَرُؤْيَتِهَا لِلْعَالَمِ.

سَيَقُومُ هَذَا الجُزْءُ بِوَضْعِ اثْنَيْنِ مِنْ أَهَمِّ الصُّرُوحِ الفِكْرِيَّةِ فِي تَارِيخِ الإِنْسَانِيَّةِ تَحْتَ مِجْهَرِ التَّحْلِيلِ المُقَارَنِ، لَا كَمُنْجَزَيْنِ مُنْعَزِلَيْنِ، بَلْ كَتَجَلِّيَيْنِ حَضَارِيَّيْنِ لِـ "عَقْلِيَّتَيْنِ" مُخْتَلِفَتَيْنِ نَشَأَتَا مِنْ رَحِمِ لِسَانَيْنِ مُتَبَايِنَيْنِ.

سَيَتَنَاوَلُ **الفَصْلُ السَّادِسُ** بِالتَّحْلِيلِ **عِلْمَ أُصُولِ الفِقْهِ**، بِاعْتِبَارِهِ التَّجَلِّيَ الأَكْمَلَ لِـ "العَقْلِيَّةِ الاشْتِقَاقِيَّةِ" العَرَبِيَّةِ. سَنُبَيِّنُ كَيْفَ أَنَّ آلِيَّةَ القِيَاسِ الأُصُولِيِّ لَيْسَتْ إِلَّا تَقْنِينًا مُوَسَّعًا لِمَنْطِقِ "الأَصْلِ وَالفَرْعِ" الكَامِنِ فِي بِنْيَةِ اللِّسَانِ.

وَفِي المُقَابِلِ، سَيَتَنَاوَلُ **الفَصْلُ السَّابِعُ** بِالتَّحْلِيلِ **المَنْطِقَ الصُّورِيَّ الأَرِسْطِيَّ**، بِاعْتِبَارِهِ التَّجَلِّيَ الأَسْمَى لِـ "العَقْلِيَّةِ التَّحْلِيلِيَّةِ" الإِغْرِيقِيَّةِ.

سَنُوَضِّحُ كَيْفَ أَنَّ أَدَوَاتِهِ (كَالمَقُولَاتِ وَالتَّعْرِيفِ بِالْجِنْسِ وَالفَصْلِ) هِيَ تَقْنِينٌ لِمَنْطِقِ "الفَصْلِ وَالتَّصْنِيفِ" الَّذِي تُشَجِّعُهُ بِنْيَةُ اللِّسَانِ الإِغْرِيقِيِّ.

إِنَّ وَضْعَ هَذَيْنِ الصَّرْحَيْنِ المَعْرِفِيَّيْنِ العِمْلَاقَيْنِ وَجْهًا لِوَجْهٍ سَيُقَدِّمُ الدَّلِيلَ النِّهَائِيَّ وَالأَقْوَى عَلَى صِحَّةِ أُطْرُوحَةِ الكِتَابِ المَرْكَزِيَّةِ: أَنَّ "مِعْمَارِيَّةَ اللِّسَانِ" تُحَدِّدُ إِلَى حَدٍّ بَعِيدٍ "مِعْمَارِيَّةَ العَقْلِ"، وَبِالتَّالِي "مِعْمَارِيَّةَ الحَضَارَةِ" نَفْسِهَا.

الفَصْلُ السَّادِسُ: تَجَلِّي "مَنْطِقِ البَيَانِ" فِي عِلْمِ أُصُولِ الفِقْهِ

القِيَاسُ الأُصُولِيُّ كَتَقْنِينٍ لِلْعَقْلِيَّةِ الاشْتِقَاقِيَّةِ

مُقَدِّمَةٌ: اللِّسَانُ كَمَنْهَجٍ

يَتَنَاوَلُ هَذَا الفَصْلُ بِالتَّحْلِيلِ العَمِيقِ "العِلْمَ المِعْيَارِيَّ" الأَهَمَّ فِي الحَضَارَةِ الإِسْلَامِيَّةِ، **عِلْمَ أُصُولِ الفِقْهِ**، لَا بِوَصْفِهِ مُجَرَّدَ مَجْمُوعَةٍ مِنَ القَوَاعِدِ التَّشْرِيعِيَّةِ، بَلْ بِاعْتِبَارِهِ **نَظَرِيَّةَ المَعْرِفَةِ** (Epistemology) وَالمَنْهَجِيَّةَ الأُمَّ الَّتِي حَكَمَتْ إِنْتَاجَ المَعْرِفَةِ وَضَبَطَتْ حُدُودَ العَقْلَانِيَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ. تَقُومُ أُطْرُوحَتُنَا المَرْكَزِيَّةُ عَلَى أَنَّ هَذَا الصَّرْحَ المَنْهَجِيَّ العَظِيمَ لَمْ يُبْنَ بِأَدَوَاتٍ مُسْتَوْرَدَةٍ مِنَ الفَلْسَفَةِ الإِغْرِيقِيَّةِ، بَلْ هُوَ نُمُوٌّ عُضْوِيٌّ وَتَجَلٍّ مُتَقَدِّمٌ لِـ "مَنْطِقٍ" كَانَ كَامِنًا بِالْفِعْلِ فِي صُلْبِ البِنْيَةِ العَمِيقَةِ لِلِسَانِ العَرَبِيِّ.

بِشَكْلٍ أَكْثَرَ تَحْدِيدًا، سَنُخَصِّصُ هَذَا الفَصْلَ لِإِثْبَاتِ **التَّوَازِي البُنْيَوِيِّ المُذْهِلِ** (Striking Structural Parallelism) بَيْنَ آلِيَّةِ **الاشْتِقَاقِ اللُّغَوِيِّ** (Linguistic Derivation) وَآلِيَّةِ **القِيَاسِ الأُصُولِيِّ** (Jurisprudential Analogy)، مُبَيِّنِينَ أَنَّ الثَّانِيَةَ هِيَ **تَقْنِينٌ** (Codification) وَصَوْغٌ مُنَظَّمٌ لِلْأُولَى. سَنَبْدَأُ بِاسْتِعَادَةٍ مُكَثَّفَةٍ لِمَنْطِقِ الاشْتِقَاقِ كَعَمَلِيَّةٍ عَقْلِيَّةٍ تَوْلِيدِيَّةٍ، ثُمَّ نَنْتَقِلُ لِتَأْصِيلِ مَشْرُوعِ عِلْمِ أُصُولِ الفِقْهِ فِي سِيَاقِهِ التَّارِيخِيِّ مَعَ الإِمَامِ الشَّافِعِيِّ.

بَعْدَ ذَلِكَ، سَنَقُومُ بِتَشْرِيحٍ مُقَارَنٍ دَقِيقٍ لِأَرْكَانِ القِيَاسِ وَمُرَادِفَاتِهَا فِي عَمَلِيَّةِ الاشْتِقَاقِ، لِنَخْلُصَ فِي النِّهَايَةِ إِلَى أَنَّ "نَحْوَ اللِّسَانِ" كَانَ هُوَ "نَحْوَ الفِكْرِ" فِي هَذِهِ الحَضَارَةِ، فِي تَجَسِيدٍ فَرِيدٍ لِلْوَحْدَةِ بَيْنَ اللُّغَةِ وَالمَنْهَجِ.

الأُصُولُ اللُّغَوِيَّةُ لِلْمَنْهَجِ: اسْتِعَادَةُ مَنْطِقِ الاشْتِقَاقِ

كَمَا أَسْسَنَا فِي الفُصُولِ السَّابِقَةِ، فَإِنَّ الاشْتِقَاقَ فِي العَرَبِيَّةِ لَيْسَ مُجَرَّدَ عَمَلِيَّةٍ صَرْفِيَّةٍ، بَلْ هُوَ مَنْهَجِيَّةٌ عَقْلِيَّةٌ مُرَكَّبَةٌ، "بَرْنَامَجٌ" لِلتَّفْكِيرِ يَقُومُ عَلَى ثَلَاثِ خُطُوَاتٍ مُتَرَابِطَةٍ:

1. **تَجْرِيدُ الأَصْلِ (الجَذْرِ):**

   وَهِيَ القُدْرَةُ عَلَى عَزْلِ النَّوَاةِ الدَّلَالِيَّةِ المُجَرَّدَةِ وَالثَّابِتَةِ مِنْ بَيْنِ تَجَلِّيَاتِهَا المُتَعَدِّدَةِ. هَذِهِ الحَرَكَةُ تُرَسِّخُ عَادَةَ البَحْثِ عَنِ **الأَصْلِ (al-Aṣl)** كَمَصْدَرٍ أَوَّلِيٍّ لِلْمَعْنَى وَالسُّلْطَةِ.

2. **إِدْرَاكُ القَاعِدَةِ (الوَزْنِ):**

   وَهِيَ القُدْرَةُ عَلَى اسْتِخْلَاصِ القَالَبِ الصَّرْفِيِّ كَقَاعِدَةٍ عَامَّةٍ تَحْمِلُ وَظِيفَةً مُطَّرِدَةً. هَذِهِ الحَرَكَةُ تُرَسِّخُ عَادَةَ البَحْثِ عَنِ **"العِلَّةِ" (al-ʻIllah)** أَوِ القَانُونِ الَّذِي يَحْكُمُ التَّحَوُّلَ.

3. **تَوْلِيدُ الفَرْعِ (المُشْتَقِّ):**

   وَهِيَ العَمَلِيَّةُ الإِنْتَاجِيَّةُ الَّتِي تَقُومُ عَلَى تَطْبِيقِ القَاعِدَةِ (الوَزْنِ) عَلَى الأَصْلِ (الجَذْرِ) لِتَوْلِيدِ كَيَانٍ جَدِيدٍ (**الفَرْعُ**).

إِنَّ المُصْطَلَحَيْنِ الأَسَاسِيَّيْنِ هُنَا، **الأَصْلُ وَالفَرْعُ**، لَيْسَا مُصْطَلَحَيْنِ مُقْتَرَحَيْنِ مِنْ قِبَلِنَا، بَلْ هُمَا المُصْطَلَحَانِ اللَّذَانِ اسْتَخْدَمَهُمَا النُّحَاةُ العَرَبُ

الأَوَائِلُ أَنْفُسُهُمْ، مُنْذُ سِيبَوَيْهِ، لِوَصْفِ العَلَاقَاتِ الاشْتِقَاقِيَّةِ ((Carter, 2004)). هَذَا يُؤَكِّدُ أَنَّ هَذِهِ العَقْلِيَّةَ "الأُصُولِيَّةَ" كَانَتْ مُتَجَذِّرَةً فِي صَمِيمِ الوَعْيِ اللُّغَوِيِّ العَرَبِيِّ. هَذَا "البَرْنَامَجُ" اللُّغَوِيُّ، بِتَرْكِيزِهِ عَلَى الرَّدِّ إِلَى الأُصُولِ وَاسْتِخْدَامِ القِيَاسِ، كَانَ هُوَ المَنْهَجَ الإِدْرَاكِيَّ الجَاهِزَ الَّذِي وَجَدَهُ المُفَكِّرُونَ المُسْلِمُونَ الأَوَائِلُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ عِنْدَمَا وَاجَهُوا تَحَدِّيَ بِنَاءِ عُلُومِهِمُ الجَدِيدَةِ.

تَأْسِيسُ العِلْمِ: مَشْرُوعُ الشَّافِعِيِّ وَمِحْوَرِيَّةُ اللِّسَانِ

وُلِدَ عِلْمُ أُصُولِ الفِقْهِ مِنْ رَحِمِ حَاجَةٍ تَارِيخِيَّةٍ مُلِحَّةٍ. فَفِي القَرْنِ الثَّانِي الهِجْرِيِّ، وَمَعَ اتِّسَاعِ رُقْعَةِ الدَّوْلَةِ الإِسْلَامِيَّةِ، وَاجَهَ المُجْتَمَعُ سَيْلًا مِنَ الوَقَائِعِ وَالمُسْتَجَدَّاتِ الَّتِي لَا نَصَّ صَرِيحًا فِيهَا. وَقَدْ أَدَّى ذَلِكَ إِلَى ظُهُورِ مَدَارِسَ فِقْهِيَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ، انْقَسَمَتْ بِشَكْلٍ عَامٍّ بَيْنَ "أَهْلِ الحَدِيثِ" فِي الحِجَازِ الَّذِينَ تَشَدَّدُوا فِي الاعْتِمَادِ عَلَى النَّصِّ، وَ"أَهْلِ الرَّأْيِ" فِي العِرَاقِ الَّذِينَ تَوَسَّعُوا فِي اسْتِخْدَامِ العَقْلِ. هَذَا الاخْتِلَافُ هَدَّدَ وَحْدَةَ المَنْهَجِ التَّشْرِيعِيِّ.

فِي هَذَا السِّيَاقِ، جَاءَ الإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيُّ (ت. 204 هـ/820 م) لِيُقَدِّمَ مَشْرُوعَهُ التَّأْسِيسِيَّ فِي كِتَابِهِ الخَالِدِ **"الرِّسَالَةِ"**. كَانَتْ عَبْقَرِيَّةُ الشَّافِعِيِّ تَكْمُنُ فِي أَنَّهُ لَمْ يَنْحَزْ لِطَرَفٍ ضِدَّ آخَرَ، بَلْ سَعَى لِتَأْسِيسِ **"عِلْمٍ"** مُتَكَامِلٍ لِلاسْتِنْبَاطِ، "مَنْهَجِيَّةٍ" تَضْبِطُ العَقْلَ وَتَرْبِطُهُ بِالنَّصِّ. وَقَدْ قَامَ مَشْرُوعُهُ عَلَى رَكِيزَتَيْنِ أَسَاسِيَّتَيْنِ:

1. مَرْكَزِيَّةُ النَّصِّ (الأَصْلُ):

أَصَرَّ الشَّافِعِيُّ عَلَى أَنَّ أَيَّ اجْتِهَادٍ يَجِبُ أَنْ يَنْطَلِقَ مِنَ النُّصُوصِ المُؤَسِّسَةِ (**الأُصُولُ**) وَيَرْتَدَّ إِلَيْهَا. بِذَلِكَ، قَطَعَ الطَّرِيقَ عَلَى الرَّأْيِ المُجَرَّدِ وَالمُنْفَلِتِ مِنْ عِقَالِ النَّصِّ.

2. مَرْكَزِيَّةُ اللِّسَانِ (أَدَاةُ الفَهْمِ):

أَدْرَكَ الشَّافِعِيُّ أَنَّ ضَبْطَ الاسْتِنْبَاطِ يَسْتَحِيلُ دُونَ ضَبْطِ فَهْمِ اللِّسَانِ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ النُّصُوصُ. لِهَذَا السَّبَبِ، يُعَدُّ كِتَابُ "الرِّسَالَةِ" فِي جُزْءٍ كَبِيرٍ مِنْهُ، كَمَا يُشِيرُ جُوزِيف لُورِي ((Lowry, 2007))، عَمَلًا تَأْسِيسِيًّا فِي **هِيرْمِنُوطِيقَا النَّصِّ القَانُونِيِّ** وَفَلْسَفَةِ اللُّغَةِ. فَقَدْ كَرَّسَ الشَّافِعِيُّ فُصُولًا طَوِيلَةً لِتَحْلِيلِ دَلَالَاتِ "البَيَانِ"، وَتَحْدِيدِ مَعَانِي العَامِّ وَالخَاصِّ، وَالمُطْلَقِ وَالمُقَيَّدِ، وَغَيْرِهَا مِنَ المَبَاحِثِ اللُّغَوِيَّةِ.

وَفِي قَلْبِ هَذَا المَشْرُوعِ المَنْهَجِيِّ، قَامَ الشَّافِعِيُّ بِتَقْنِينِ **القِيَاسِ** وَتَحْدِيدِ أَرْكَانِهِ بِوُضُوحٍ، فَحَوَّلَهُ مِنْ مُجَرَّدِ "رَأْيٍ" إِلَى "أَدَاةٍ عِلْمِيَّةٍ" مُنْضَبِطَةٍ لِتَوْلِيدِ الأَحْكَامِ.

التَّوَازِي المُذْهِلُ: تَشْرِيحُ القِيَاسِ كَاشْتِقَاقٍ تَشْرِيعِيٍّ

عِنْدَمَا نُشَرِّحُ بُنْيَةَ القِيَاسِ الأُصُولِيِّ، كَمَا اسْتَقَرَّتْ فِي الفِكْرِ الإِسْلَامِيِّ، نَجِدُ أَنَّهَا تَكَادُ تَكُونُ صُورَةً طِبْقَ الأَصْلِ لِبُنْيَةِ الاشْتِقَاقِ اللُّغَوِيِّ. إِنَّهُ تَوَازٍ يُؤَكِّدُ أُطْرُوحَتَنَا بِشَكْلٍ قَاطِعٍ. لِنَقُمْ بِتَفْكِيكِ هَذَا التَّطَابُقِ رُكْنًا بِرُكْنٍ:

1. رُكْنُ الأَصْلِ: مَصْدَرُ السُّلْطَةِ وَالمَعْنَى:

فِي الاشْتِقَاقِ، يُعَدُّ **الجَذْرُ** هُوَ **الأَصْلَ** الثَّابِتَ وَالمَرْجِعَ الأَعْلَى. وَفِي القِيَاسِ، يُعَدُّ **النَّصُّ** (مِنَ القُرْآنِ أَوِ السُّنَّةِ) هُوَ **الأَصْلَ**. كِلَاهُمَا يُمَثِّلُ المَصْدَرَ الأَوَّلِيَّ والمُعْطَى وَالمُؤَسِّسَ الَّذِي تَسْتَمِدُّ مِنْهُ الفُرُوعُ شَرْعِيَّتَهَا وَوُجُودَهَا.

2. رُكْنُ العِلَّةِ وَالوَزْنِ: القَاعِدَةُ المُجَرَّدَةُ:

هَذِهِ هِيَ نُقْطَةُ التَّطَابُقِ الأَكْثَرُ عُمْقًا وَإِدْهَاشًا. فَكَمَا أَنَّ اللُّغَوِيَّ يَقُومُ

بِعَمَلِيَّةِ تَجْرِيدٍ لِيَسْتَخْلِصَ **الوَزْنَ الصَّرْفِيَّ** كَقَاعِدَةٍ عَامَّةٍ تَحْمِلُ وَظِيفَةً مُطَّرِدَةً، كَذَلِكَ الفَقِيهُ يَقُومُ بِأَصْعَبِ عَمَلِيَّةٍ عَقْلِيَّةٍ، وَهِيَ اسْتِنْبَاطُ **العِلَّةِ**، وَهِيَ أَيْضًا قَاعِدَةٌ عَامَّةٌ مُجَرَّدَةٌ تَصِفُ السَّبَبَ الجَوْهَرِيَّ لِلْحُكْمِ. إِنَّ اسْتِخْرَاجَ "عِلَّةِ الإِسْكَارِ" مِنْ تَحْرِيمِ الخَمْرِ هُوَ عَمَلِيَّةٌ مُكَافِئَةٌ تَمَامًا لِاسْتِخْرَاجِ "وَظِيفَةِ الطَّلَبِ" مِنْ وَزْنِ "اسْتَفْعَلَ". إِنَّهَا القَفْزَةُ التَّجْرِيدِيَّةُ لِاكْتِشَافِ القَانُونِ الكَامِنِ وَرَاءَ الظَّاهِرِ. وَقَدْ طَوَّرَ الأُصُولِيُّونَ مَسَالِكَ مُعَقَّدَةً لِتَحْقِيقِ هَذِهِ العِلَّةِ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى مَرْكَزِيَّتِهَا فِي مَنْهَجِهِمْ ((Hallaq, 1997)).

3. رُكْنُ الفَرْعِ وَالحُكْمِ: النَّتِيجَةُ المُتَوَلِّدَةُ:

فِي الاشْتِقَاقِ، يَنْتُجُ عَنْ تَطْبِيقِ الوَزْنِ عَلَى الجَذْرِ **كَلِمَةٌ جَدِيدَةٌ (فَرْعٌ)** ذَاتُ **مَعْنًى جَدِيدٍ**. وَفِي القِيَاسِ، يَنْتُجُ عَنْ تَطْبِيقِ العِلَّةِ عَلَى **الوَاقِعَةِ الجَدِيدَةِ (الفَرْعِ) حُكْمٌ شَرْعِيٌّ جَدِيدٌ**. فِي كِلْتَا الحَالَتَيْنِ، النَّتِيجَةُ هِيَ مَعْرِفَةٌ جَدِيدَةٌ، تَمَّ تَوْلِيدُهَا بِشَكْلٍ مَنْطِقِيٍّ، وَتَظَلُّ صِحَّتُهَا مَشْرُوطَةً بِصِحَّةِ رَبْطِهَا بِالأَصْلِ. حَتَّى إِنَّ مُصْطَلَحَ **"تَعْدِيَةِ الحُكْمِ"** الأُصُولِيَّ يَجِدُ صَدَاهُ فِي مُصْطَلَحِ **"الفِعْلِ المُتَعَدِّي"** النَّحْوِيِّ، فِي دَلَالَةٍ عَلَى وَحْدَةِ المَنْطِقِ الكَامِنِ.

خُلَاصَةٌ: اشْتِقَاقُ الحَضَارَةِ مِنَ اللِّسَانِ

فِي خِتَامِ هَذَا التَّحْلِيلِ المُفَصَّلِ، نُؤَكِّدُ مُجَدَّدًا عَلَى أَنَّ التَّوَازِيَ البُنْيَوِيَّ وَالمَنْهَجِيَّ بَيْنَ الاشْتِقَاقِ اللُّغَوِيِّ وَالقِيَاسِ الأُصُولِيِّ هُوَ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يَكُونَ مُجَرَّدَ مُصَادَفَةٍ عَارِضَةٍ. إِنَّهُ دَلِيلٌ قَاطِعٌ عَلَى أَنَّ "العَقْلِيَّةَ الاشْتِقَاقِيَّةَ"، الَّتِي غَرَسَتْهَا وَصَقَلَتْهَا البِنْيَةُ العَمِيقَةُ لِلِّسَانِ العَرَبِيِّ عَلَى مَدَى قُرُونٍ، قَدْ وَفَّرَتِ **"البَرْنَامَجَ المَعْرِفِيَّ"** الأَسَاسِيَّ الَّذِي اسْتَخْدَمَهُ العَقْلُ المُسْلِمُ لِبِنَاءِ وَاحِدٍ مِنْ أَهَمِّ صُرُوحِهِ المَنْهَجِيَّةِ.

لَمْ يَحْتَجِ الفِكْرُ الإِسْلَامِيُّ فِي لَحْظَةِ تَأْسِيسِهِ لِعُلُومِهِ أَنْ يَسْتَوْرِدَ مَنْطِقَهُ مِنْ حَضَارَةٍ أُخْرَى، فَقَدْ وَجَدَ فِي صُلْبِ لِسَانِهِ المُقَدَّسِ، لِسَانِ القُرْآنِ، مَنْطِقًا دَاخِلِيًّا قَوِيًّا وَمُنْتِجًا: مَنْطِقُ الأَصْلِ وَالفَرْعِ، وَالعِلَّةِ وَالمَعْلُولِ،

وَالقِيَاسِ وَالتَّوْلِيدِ. وَهَكَذَا، تَوَحَّدَتْ مَنْهَجِيَّةُ فَهْمِ الشَّرِيعَةِ مَعَ مَنْهَجِيَّةِ فَهْمِ اللُّغَةِ، فِي حَالَةٍ فَرِيدَةٍ مِنَ الانْصِهَارِ بَيْنَ اللِّسَانِيِّ وَالتَّشْرِيعِيِّ. إِنَّ اشْتِقَاقَ الحُكْمِ مِنَ النَّصِّ لَمْ يَكُنْ إِلَّا تَجَلِّيًا أَعْلَى وَأَرْقَى لِعَمَلِيَّةِ اشْتِقَاقِ الكَلِمَةِ مِنَ الجَذْرِ.

الفَصْلُ السَّابِعُ: تَجَلِّي "المَنْطِقِ الصُّورِيِّ" فِي مَشْرُوعِ أَرِسْطُو

كَيْفَ نَشَأَ المَنْطِقُ كَنِظَامٍ خَارِجِيٍّ لِضَبْطِ اللِّسَانِ وَتَصْنِيفِ الوُجُودِ؟

مُقَدِّمَةٌ: فِي الحَاجَةِ إِلَى مِيزَانٍ لِلْفِكْرِ

يُمَثِّلُ المَنْطِقُ الأَرِسْطِيُّ، المَعْرُوفُ بِـ "الأُورْجَانُون" (أَيِ "الأَدَاةُ")، لَحْظَةً فَاصِلَةً فِي تَارِيخِ الفِكْرِ البَشَرِيِّ، وَيُعَدُّ حَجَرَ الزَّاوِيَةِ الَّذِي بُنِيَتْ عَلَيْهِ العَقْلَانِيَّةُ الغَرْبِيَّةُ لِأَكْثَرَ مِنْ أَلْفَيْ عَامٍ. لَكِنَّ هَذَا البَحْثَ يَسْعَى إِلَى تَجَاوُزِ النَّظْرَةِ التَّقْلِيدِيَّةِ الَّتِي تَرَى فِي هَذَا المَنْطِقِ مُجَرَّدَ اكْتِشَافٍ لِقَوَانِينَ كَوْنِيَّةٍ وَمُجَرَّدَةٍ لِلْفِكْرِ، لِيَقْتَرِحَ أَنَّهُ فِي حَقِيقَتِهِ نِتَاجٌ حَضَارِيٌّ وَلُغَوِيٌّ عَمِيقٌ، وَأَنَّهُ **التَّجْسِيدُ الأَكْمَلُ وَالتَّقْنِينُ الأَرْقَى لِـ "العَقْلِيَّةِ التَّحْلِيلِيَّةِ-التَّصْنِيفِيَّةِ"** الَّتِي تَجَذَّرَتْ فِي البِيئَةِ الإِغْرِيقِيَّةِ.

تَقُومُ أُطْرُوحَتُنَا عَلَى أَنَّ المَشْرُوعَ الأَرِسْطِيَّ بِأَكْمَلِهِ لَمْ يَكُنْ تَطْوِيرًا عُضْوِيًّا لِمَنْطِقٍ كَامِنٍ فِي اللِّسَانِ الإِغْرِيقِيِّ، بَلْ كَانَ، عَلَى العَكْسِ، **مُحَاوَلَةً جَبَّارَةً وَمُتَعَمَّدَةً لِبِنَاءِ نِظَامٍ "خَارِجِيٍّ" وَ"صُورِيٍّ" يَتَجَاوَزُ اللُّغَةَ وَيَقُومُ بِـ "ضَبْطِهَا" وَتَهْذِيبِهَا**. سَنُبَرْهِنُ عَلَى أَنَّ هَذَا المَشْرُوعَ نَشَأَ مِنْ شَكٍّ فَلْسَفِيٍّ

عَمِيقٍ فِي قُدْرَةِ اللُّغَةِ الطَّبِيعِيَّةِ عَلَى حَمْلِ الحَقِيقَةِ، وَهُوَ شَكٌّ وَرِثَهُ أَرِسْطُو عَنْ أَفْلَاطُونَ. سَيَقُومُ هَذَا الفَصْلُ بِتَشْرِيحِ الأَدَوَاتِ المِحْوَرِيَّةِ لِلْمَنْطِقِ الأَرِسْطِيِّ —المَقُولَاتُ، وَمَنْهَجُ التَّعْرِيفِ بِالْجِنْسِ وَالفَصْلِ، وَالقِيَاسُ المَنْطِقِيُّ— لِنُبَيِّنَ كَيْفَ أَنَّهَا جَمِيعًا تَجْسِيدٌ لِعَقْلِيَّةٍ تُقَدِّسُ التَّحْلِيلَ وَالتَّصْنِيفَ وَرَسْمَ الحُدُودِ، وَهِيَ العَقْلِيَّةُ ذَاتُهَا الَّتِي تُشَجِّعُهَا البِنْيَةُ "التَّرْكِيبِيَّةُ-التَّجْمِيعِيَّةُ" لِلِّسَانِ الإِغْرِيقِيِّ.

الجُذُورُ الفَلْسَفِيَّةُ لِلْمَشْرُوعِ الأَرِسْطِيِّ: الشَّكُّ الأَفْلَاطُونِيُّ فِي اللُّغَةِ

لِفَهْمِ السَّبَبِ الَّذِي دَفَعَ أَرِسْطُو إِلَى تَأْسِيسِ نِظَامٍ مَنْطِقِيٍّ مُسْتَقِلٍّ عَنِ اللُّغَةِ، يَجِبُ أَنْ نَعُودَ إِلَى مُعَلِّمِهِ أَفْلَاطُونَ، الَّذِي أَسَّسَ لِتَقْلِيدٍ مِنَ **الشَّكِّ العَمِيقِ فِي قِيمَةِ اللُّغَةِ الطَّبِيعِيَّةِ كَأَدَاةٍ لِلْوُصُولِ إِلَى الحَقِيقَةِ**. تَقُومُ فَلْسَفَةُ أَفْلَاطُونَ عَلَى ثُنَائِيَّةٍ حَادَّةٍ بَيْنَ "عَالَمِ المُثُلِ" (World of Forms) الحَقِيقِيِّ، الأَزَلِيِّ، وَالمُجَرَّدِ، وَ"عَالَمِ الحِسِّ" (Sensible World) المُتَغَيِّرِ، النَّاقِصِ، وَالزَّائِلِ. وَفِي هَذِهِ المَنْظُومَةِ، تَقَعُ اللُّغَةُ بِالْكَامِلِ ضِمْنَ العَالَمِ الحِسِّيِّ. فَالْكَلِمَاتُ لَيْسَتْ إِلَّا "ظِلَالًا" أَوْ "نُسَخًا" بَاهِتَةً لِلْحَقَائِقِ المُثُلِيَّةِ، وَهِيَ بِالتَّالِي لَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ مَصْدَرًا لِلْيَقِينِ المَعْرِفِيِّ.

يَتَجَلَّى هَذَا الشَّكُّ بِوُضُوحٍ فِي مُحَاوَرَاتِهِ. فَفِي **مُحَاوَرَةِ "كْرَاتِيلُوس"**، يُنَاقِشُ أَفْلَاطُونُ مَسْأَلَةَ أَصْلِ الأَسْمَاءِ، وَيَخْلُصُ إِلَى أَنَّ العَلَاقَةَ بَيْنَ الكَلِمَةِ وَمَعْنَاهَا هِيَ **عَلَاقَةٌ اصْطِلَاحِيَّةٌ** (Conventional) وَغَالِبًا مَا تَكُونُ خَادِعَةً، وَأَنَّ عَلَى الفَيْلَسُوفِ أَنْ يَتَجَاوَزَ الكَلِمَاتِ لِيَتَأَمَّلَ الحَقَائِقَ ذَاتَهَا (Plato, Cratylus, 438d-440e: (Plato, 1997)). وَفِي **مُحَاوَرَةِ "فَايْدْرُوس"**، يُقَدِّمُ نَقْدًا لَذِعًا لِلْكِتَابَةِ نَفْسِهَا، مُعْتَبِرًا إِيَّاهَا "حِكْمَةً ظَاهِرِيَّةً" تُضْعِفُ الذَّاكِرَةَ الحَيَّةَ وَتُقَدِّمُ حِوَارًا صَامِتًا وَجَامِدًا بَدَلًا مِنَ الجَدَلِ الحَيِّ الَّذِي يَقُودُ إِلَى الحَقِيقَةِ.

هَذِهِ "الأَزْمَةُ المَعْرِفِيَّةُ" الَّتِي خَلَقَهَا الشَّكُّ الأَفْلَاطُونِيُّ فِي اللُّغَةِ

فَتَحَتِ البَابَ لِلْحَاجَةِ المُلِحَّةِ لِأَدَاةٍ جَدِيدَةٍ، أَدَاةٍ عَقْلِيَّةٍ صَارِمَةٍ وَمَوْثُوقَةٍ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصِلَ إِلَى اليَقِينِ بِمَعْزِلٍ عَنْ غُمُوضِ اللِّسَانِ وَخِدَاعِهِ. وَكَانَتْ هَذِهِ الأَدَاةُ هِيَ **المَنْطِقَ**. لَقَدْ وَرِثَ أَرِسْطُو عَنْ مُعَلِّمِهِ هَذَا الشَّكَّ فِي اللُّغَةِ، وَلَكِنَّهُ بَدَلًا مِنْ أَنْ يَهْجُرَهَا، قَرَّرَ أَنْ "يُهَذِّبَهَا" وَ"يُنَظِّمَهَا" وَيَضَعَ لَهَا قَوَانِينَ صَارِمَةً مِنْ خَارِجِهَا. لَقَدْ كَانَ مَشْرُوعُهُ المَنْطِقِيُّ هُوَ المَشْرُوعَ الهَادِفَ إِلَى إِنْقَاذِ العَقْلِ مِنْ فَوْضَى اللِّسَانِ.

أَدَوَاتُ المَنْطِقِ الأَرِسْطِيِّ: تَقْنِينُ العَقْلِيَّةِ التَّحْلِيلِيَّةِ

إِنَّ "الأُورْجَانُونَ" الأَرِسْطِيَّ هُوَ تَقْنِينٌ مُنَظَّمٌ لِلْعَقْلِيَّةِ التَّحْلِيلِيَّةِ-التَّصْنِيفِيَّةِ. وَتَقُومُ أَدَوَاتُهُ الأَسَاسِيَّةُ عَلَى نَفْسِ المَبَادِئِ الَّتِي رَأَيْنَاهَا تَنْعَكِسُ فِي بِنْيَةِ اللِّسَانِ الإِغْرِيقِيِّ، وَهِيَ تَفْكِيكُ الكُلِّ إِلَى أَجْزَائِهِ وَتَصْنِيفُ هَذِهِ الأَجْزَاءِ فِي فَئَاتٍ مُنْضَبِطَةٍ.

1. **المَقُولَاتُ** (Kategoriai): ذِرْوَةُ فِعْلِ التَّصْنِيفِ:

يَبْدَأُ أَرِسْطُو مَشْرُوعَهُ بِوَضْعِ "خَرِيطَةٍ تَصْنِيفِيَّةٍ" لِلْوُجُودِ بِأَكْمَلِهِ، وَهِيَ **المَقُولَاتُ العَشْرُ**. هَذِهِ المَقُولَاتُ (وَهِيَ الجَوْهَرُ، وَالكَمُّ، وَالكَيْفُ، وَالإِضَافَةُ، وَالمَكَانُ، وَالزَّمَانُ، وَالوَضْعُ، وَالمِلْكُ، وَالفِعْلُ، وَالانْفِعَالُ) هِيَ الفِئَاتُ العُلْيَا الَّتِي يُمْكِنُ تَصْنِيفُ كُلِّ مَا فِي الوُجُودِ ضِمْنَهَا (Aristotle, Categories, Part 4: (Barnes, 1995); (Lloyd, 2012); (Aristotle, 1985)). إِنَّ هَذَا المَشْرُوعَ فِي حَدِّ ذَاتِهِ هُوَ التَّجْسِيدُ الأَقْصَى لِـ "العَقْلِيَّةِ التَّصْنِيفِيَّةِ". إِنَّهُ مَسْعًى لِتَحْوِيلِ العَالَمِ مِنْ كُتْلَةٍ سَيَّالَةٍ إِلَى مَجْمُوعَةٍ مُنَظَّمَةٍ مِنَ "الصُّنْدُوقَاتِ" المَفَاهِيمِيَّةِ. وَيَتَنَاغَمُ هَذَا المَسْعَى تَمَامًا مَعَ لُغَةٍ تَعْتَمِدُ عَلَى اللَّوَاحِقِ الصَّرْفِيَّةِ كَـ "بِطَاقَاتِ تَصْنِيفٍ" لِلْكَلِمَاتِ.

2. **التَّعْرِيفُ بِالْجِنْسِ وَالفَصْلِ: مَنْطِقُ رَسْمِ الحُدُودِ:**

بَعْدَ تَصْنِيفِ الوُجُودِ، تَأْتِي مُهِمَّةُ تَعْرِيفِ الأَشْيَاءِ الجُزْئِيَّةِ دَاخِلَ هَذِهِ

الفِئَاتِ. وَيُقَدِّمُ أَرِسْطُو مَنْهَجًا دَقِيقًا لِذَلِكَ يُعْرَفُ بِـ **التَّعْرِيفِ بِالْجِنْسِ القَرِيبِ وَالفَصْلِ النَّوْعِيِّ**. وَهَذِهِ العَمَلِيَّةُ هِيَ تَطْبِيقٌ مُبَاشِرٌ لِلْمَنْطِقِ التَّحْلِيلِيِّ-التَّرْكِيبِيِّ. فَلِتَعْرِيفِ "الإِنْسَانِ"، نَقُومُ أَوَّلًا بِتَحْلِيلِهِ، فَنَضَعُهُ ضِمْنَ فَئَتِهِ العَامَّةِ (**الجِنْسُ**: حَيَوَانٌ)، ثُمَّ نُضِيفُ إِلَيْهِ الصِّفَةَ المُمَيِّزَةَ (**الفَصْلُ**) الَّتِي تَفْصِلُهُ عَنْ بَقِيَّةِ الحَيَوَانَاتِ، وَهِيَ "النَّاطِقُ" أَوِ "العَاقِلُ". فَيَكُونُ التَّعْرِيفُ: "الإِنْسَانُ حَيَوَانٌ نَاطِقٌ". هَذِهِ العَمَلِيَّةُ (الجِنْسُ + الفَصْلُ = التَّعْرِيفُ) هِيَ، كَمَا ذَكَرْنَا سَابِقًا، المُكَافِئُ المَنْطِقِيُّ لِعَمَلِيَّةِ التَّرْكِيبِ المَزْجِيِّ فِي اللُّغَةِ (اسْمٌ أَسَاسِيٌّ + صِفَةٌ مُحَدِّدَةٌ = مُصْطَلَحٌ جَدِيدٌ). إِنَّهَا مَنْهَجِيَّةٌ تَقُومُ عَلَى **الفَصْلِ وَالتَّحْدِيدِ وَرَسْمِ الحُدُودِ**، وَهِيَ الصُّورَةُ المُضَادَّةُ تَمَامًا لِمَنْهَجِيَّةِ الوَصْلِ وَالرَّدِّ إِلَى الأَصْلِ ((Barnes, 1995)).

3. القِيَاسُ المَنْطِقِيُّ (Syllogism): هَنْدَسَةُ الاسْتِدْلَالِ:

بَعْدَ تَصْنِيفِ العَالَمِ وَتَعْرِيفِ مُكَوِّنَاتِهِ، يَأْتِي دَوْرُ **القِيَاسِ المَنْطِقِيِّ** لِيَضْمَنَ صِحَّةَ الاسْتِنْتَاجَاتِ الَّتِي تَتِمُّ دَاخِلَ هَذَا النِّظَامِ. وَالقِيَاسُ هُوَ فِي جَوْهَرِهِ "هَنْدَسَةٌ" لِتَرْكِيبِ القَضَايَا. فَهُوَ عَمَلِيَّةُ "تَجْمِيعٍ" لِمُقَدِّمَتَيْنِ لِإِنْتَاجِ نَتِيجَةٍ ضَرُورِيَّةٍ. وَقِيمَتُهُ الكُبْرَى تَكْمُنُ فِي كَوْنِهِ "صُورِيًّا" (Formal)، أَيْ أَنَّ صِحَّتَهُ تَعْتَمِدُ عَلَى "شَكْلِ" الحُجَّةِ وَلَيْسَ "مَضْمُونِهَا". هَذِهِ الصُّورِيَّةُ هِيَ الخُطْوَةُ النِّهَائِيَّةُ فِي خَلْقِ نِظَامٍ مُسْتَقِلٍّ تَمَامًا عَنْ غُمُوضِ المَعَانِي فِي اللُّغَةِ الطَّبِيعِيَّةِ.

المَنْطِقُ كَنِظَامٍ خَارِجِيٍّ: تَأْكِيدُ الانْفِصَالِ بَيْنَ الفِكْرِ وَاللِّسَانِ

إِنَّ القُوَّةَ الكُبْرَى لِلْمَنْطِقِ الأَرِسْطِيِّ، وَالسَّبَبَ فِي هَيْمَنَتِهِ التَّارِيخِيَّةِ، تَكْمُنُ فِي ادِّعَائِهِ لِلْكَوْنِيَّةِ وَالعَالَمِيَّةِ. فَهُوَ يُقَدِّمُ نَفْسَهُ لَيْسَ كَمَنْطِقٍ لِلْيُونَانِيِّينَ، بَلْ كَقَوَانِينَ لِلْفِكْرِ الإِنْسَانِيِّ الصَّحِيحِ فِي أَيِّ مَكَانٍ وَزَمَانٍ. لَكِنَّ "ثَمَنَ" هَذِهِ الكَوْنِيَّةِ كَانَ بَاهِظًا: إِنَّهُ **الانْفِصَالُ** (infiṣāl) التَّامُّ بَيْنَ نِظَامِ المَنْطِقِ وَالحَيَاةِ العُضْوِيَّةِ لِلِّسَانِ الإِغْرِيقِيِّ.

عَلَى عَكْسِ عِلْمِ أُصُولِ الفِقْهِ، الَّذِي هُوَ عِلْمٌ نَابِعٌ **مِنَ** اللِّسَانِ العَرَبِيِّ **وَلِأَجْلِهِ**، فَإِنَّ المَنْطِقَ الأَرِسْطِيَّ هُوَ عِلْمٌ يَقِفُ **فَوْقَ** اللِّسَانِ الإِغْرِيقِيِّ **وَضِدَّهُ** أَحْيَانًا. إِنَّهُ يَتَعَامَلُ مَعَ اللُّغَةِ كَمَادَّةٍ خَامٍ غَيْرِ مَوْثُوقَةٍ يَجِبُ صَقْلُهَا وَتَهْذِيبُهَا وَإِخْضَاعُهَا لِقَوَاعِدَ خَارِجِيَّةٍ صَارِمَةٍ. هَذَا الانْفِصَالُ أَسَّسَ لِثُنَائِيَّةٍ عَمِيقَةٍ فِي التَّقْلِيدِ الفِكْرِيِّ الغَرْبِيِّ بَيْنَ "الفِكْرِ الصُّورِيِّ" (العِلْمِيِّ وَالمَنْطِقِيِّ) الدَّقِيقِ وَ"اللُّغَةِ الطَّبِيعِيَّةِ" (الشِّعْرِيَّةِ وَالخِطَابِيَّةِ) الغَامِضَةِ، وَهِيَ ثُنَائِيَّةٌ تَكَادُ تَكُونُ غَائِبَةً عَنِ النَّمُوذَجِ الإِسْلَامِيِّ المُتَكَامِلِ الَّذِي يَرَى فِي "البَيَانِ" اتِّحَادًا لِلْجَمَالِ وَالحَقِيقَةِ.

خُلَاصَةٌ: المَنْطِقُ كَنِتَاجٍ لُغَوِيٍّ-حَضَارِيٍّ

فِي خِتَامِ هَذَا التَّحْلِيلِ، نَخْلُصُ إِلَى أَنَّ المَنْطِقَ الأَرِسْطِيَّ، بَعِيدًا عَنْ كَوْنِهِ نِظَامًا عَقْلِيًّا كَوْنِيًّا وَمُفَارِقًا، هُوَ نِتَاجٌ حَضَارِيٌّ وَلُغَوِيٌّ عَمِيقٌ. إِنَّهُ التَّجْسِيدُ الأَكْمَلُ لِلْعَقْلِيَّةِ التَّحْلِيلِيَّةِ-التَّصْنِيفِيَّةِ الَّتِي تَغَذَّتْ وَنَمَتْ فِي بِيئَةِ لِسَانٍ يَقُومُ عَلَى التَّرْكِيبِ وَالتَّجْمِيعِ. إِنَّ مَنْطِقَ التَّعْرِيفِ بِالْجِنْسِ وَالفَصْلِ هُوَ التَّرْجَمَةُ الفَلْسَفِيَّةُ لِعَادَةٍ لُغَوِيَّةٍ تَقُومُ عَلَى التَّرْكِيبِ المَزْجِيِّ.

إِنَّ تَطَوُّرَهُ كَنِظَامٍ **خَارِجِيٍّ** يَهْدِفُ إِلَى تَنْظِيمِ اللُّغَةِ وَضَبْطِهَا هُوَ الدَّلِيلُ القَاطِعُ عَلَى صِحَّةِ نَمُوذَجِ "اللِّسَانِ الهَجِينِ": فَعِنْدَمَا تَفْتَقِرُ اللُّغَةُ إِلَى مَنْطِقٍ دَاخِلِيٍّ تَوْلِيدِيٍّ وَاضِحٍ وَمُتَمَاسِكٍ، يَضْطَرُّ العَقْلُ إِلَى اخْتِرَاعِ مَنْطِقٍ خَارِجِيٍّ لِيُعَوِّضَ هَذَا القُصُورَ. وَهَذَا المَسَارُ يَخْتَلِفُ جِذْرِيًّا عَنِ النَّمُوذَجِ العَرَبِيِّ لِـ "مَنْطِقِ البَيَانِ"، حَيْثُ كَانَ مَنْطِقُ اللِّسَانِ وَمَنْطِقُ الفِكْرِ شَيْئًا وَاحِدًا.

الجُزْءُ الرَّابِعُ: الخَاتِمَةُ وَالآفَاقُ المُسْتَقْبَلِيَّةُ

بَعْدَ الرِّحْلَةِ التَّحْلِيلِيَّةِ وَالمُقَارَنَةِ الطَّوِيلَةِ الَّتِي خُضْنَاهَا فِي الأَجْزَاءِ السَّابِقَةِ —مِنْ تَشْرِيحِ "المِعْمَارِيَّاتِ اللُّغَوِيَّةِ"، إِلَى تَحْلِيلِ "الآثَارِ الإِدْرَاكِيَّةِ"، فَاسْتِعْرَاضِ "التَّجَلِّيَاتِ الحَضَارِيَّةِ"— نَصِلُ الآنَ إِلَى مَرْحَلَةِ جَمْعِ الخُيُوطِ وَحَصَادِ النَّتَائِجِ وَاسْتِشْرَافِ المُسْتَقْبَلِ. يُمَثِّلُ هَذَا الجُزْءُ الخِتَامِيُّ لَيْسَ فَقَطْ نِهَايَةَ مَسَارٍ بَحْثِيٍّ، بَلْ هُوَ بِدَايَةُ مَشْرُوعٍ فِكْرِيٍّ وَعَمَلِيٍّ. فَالأُطْرُوحَةُ الَّتِي سَعَيْنَا لِإِثْبَاتِهَا، وَهِيَ وُجُودُ عَلَاقَةٍ عُضْوِيَّةٍ عَمِيقَةٍ بَيْنَ بِنْيَةِ اللِّسَانِ وَبِنْيَةِ الفِكْرِ وَالهُوِيَّةِ، لَا يُمْكِنُ أَنْ تَبْقَى حَبِيسَةَ التَّنْظِيرِ الأَكَادِيمِيِّ.

لِذَلِكَ، يَنْقَسِمُ هَذَا الجُزْءُ إِلَى قِسْمَيْنِ مُتَكَامِلَيْنِ. سَيُقَدِّمُ **الفَصْلُ الثَّامِنُ "خَاتِمَةٌ تَرْكِيبِيَّةٌ"**، تَقُومُ بِتَكْثِيفِ وَتَلْخِيصِ النَّتَائِجِ الكُبْرَى لِهَذِهِ الدِّرَاسَةِ المُقَارَنَةِ. وَالأَهَمُّ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهَا سَتُحَوِّلُ هَذِهِ النَّتَائِجَ النَّظَرِيَّةَ إِلَى **"تَوْصِيَاتٍ"** عَمَلِيَّةٍ وَاسْتِرَاتِيجِيَّةٍ فِي مَجَالَاتٍ حَيَوِيَّةٍ كَالتَّعْلِيمِ وَالبَحْثِ العِلْمِيِّ وَالذَّكَاءِ الاصْطِنَاعِيِّ، فِي مُحَاوَلَةٍ لِرَسْمِ خَارِطَةِ طَرِيقٍ لِتَجْدِيدِ حَيَوِيَّةِ اللِّسَانِ العَرَبِيِّ.

ثُمَّ يَأْتِي الفَصْلُ التَّاسِعُ لِيَفْتَحَ **"آفَاقَ البَحْثِ المُسْتَقْبَلِيَّةِ"**، مُؤَكِّدًا عَلَى أَنَّ المَنْهَجَ وَالأُطْرُوحَةَ المُقَدَّمَيْنِ فِي هَذَا الكِتَابِ لَيْسَا كَلِمَةً أَخِيرَةً، بَلْ هُمَا دَعْوَةٌ لِلْبَاحِثِينَ لِتَوْسِيعِ حَقْلِ المُقَارَنَةِ لِيَشْمَلَ لُغَاتٍ وَحَضَارَاتٍ أُخْرَى، وَلِلشُّرُوعِ فِي المَشْرُوعِ الأَكْثَرِ طُمُوحًا وَأَهَمِّيَّةً، وَهُوَ **بِنَاءُ نَظَرِيَّةٍ مَعْرِفِيَّةٍ أَصِيلَةٍ نَابِعَةٍ مِنَ التَّقْلِيدِ البَيَانِيِّ العَرَبِيِّ**. إِنَّ الهَدَفَ النِّهَائِيَّ لِهَذَا الجُزْءِ هُوَ تَحْوِيلُ

نَتَائِجِ هَذَا البَحْثِ مِنْ مُجَرَّدِ "مَعْرِفَةٍ" حَوْلَ اللِّسَانِ إِلَى "مَشْرُوعٍ" يَنْبُعُ مِنَ اللِّسَانِ.

الفَصْلُ الثَّامِنُ: مِنْ بِنْيَةِ اللِّسَانِ إِلَى مَصِيرِ الحَضَارَةِ

مُقَدِّمَةٌ: حَصَادُ الرِّحْلَةِ وَبَذْرُ المُسْتَقْبَلِ

تَصِلُ هَذِهِ الدِّرَاسَةُ المُقَارَنَةُ، بَعْدَ رِحْلَةٍ تَحْلِيلِيَّةٍ عَمِيقَةٍ فِي "الحِينَاتِ" البُنْيَوِيَّةِ لِلِّسَانَيْنِ العَرَبِيِّ وَالإِغْرِيقِيِّ، إِلَى مَحَطَّتِهَا الخِتَامِيَّةِ. لَكِنَّ هَذِهِ الخَاتِمَةَ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ نُقْطَةِ نِهَايَةٍ، بَلْ هِيَ لَحْظَةٌ "تَرْكِيبِيَّةٌ" نَسْعَى فِيهَا إِلَى جَمْعِ الخُيُوطِ المُتَعَدِّدَةِ الَّتِي نَسَجْنَاهَا عَبْرَ الفُصُولِ السَّابِقَةِ —مِنَ الصَّرْفِ إِلَى النَّحْوِ، وَمِنَ الشَّفَوِيَّةِ إِلَى الكِتَابَةِ، وَمِنَ المَنْطِقِ إِلَى الهُوِيَّةِ— لِنَقْدِمَهَا فِي صُورَةِ أُطْرُوحَةٍ نِهَائِيَّةٍ مُتَكَامِلَةٍ. لَقَدْ حَاوَلْنَا أَنْ نُبَرْهِنَ عَلَى أَنَّ البِنْيَةَ العَمِيقَةَ لِلِّسَانِ لَيْسَتْ هَيْكَلًا مُحَايِدًا، بَلْ هِيَ "**مَصْفُوفَةٌ تَكْوِينِيَّةٌ**" (Formative Matrix) تُشَكِّلُ "العَقْلِيَّةَ" المُمْكِنَةَ لِحَضَارَةٍ مَا وَتَرْسُمُ مَسَارَهَا المَعْرِفِيَّ.

سَيَقُومُ هَذَا الفَصْلُ الخِتَامِيُّ أَوَّلًا بِتَقْدِيمِ خُلَاصَةٍ تَرْكِيبِيَّةٍ لِلنَّتَائِجِ الكُبْرَى لِلْبَحْثِ، مُعِيدًا تَأْكِيدَ التَّمَايُزِ الجَوْهَرِيِّ بَيْنَ النَّمُوذَجِ العَرَبِيِّ "العُضْوِيِّ-التَّوْلِيدِيِّ" وَالنَّمُوذَجِ الإِغْرِيقِيِّ "الهَجِينِ-التَّحْلِيلِيِّ". ثُمَّ، وَانْطِلَاقًا مِنْ هَذَا التَّشْخِيصِ، سَيَنْتَقِلُ البَحْثُ مِنْ حَيِّزِ النَّظَرِ إِلَى حَيِّزِ العَمَلِ، مُقَدِّمًا **مَجْمُوعَةً مِنَ التَّوْصِيَاتِ الاسْتِرَاتِيجِيَّةِ** فِي مَجَالَاتٍ حَيَوِيَّةٍ كَالتَّعْلِيمِ، وَالبَحْثِ العِلْمِيِّ، وَالذَّكَاءِ الاصْطِنَاعِيِّ. تَهْدِفُ هَذِهِ التَّوْصِيَاتُ إِلَى تَفْعِيلِ "العَبْقَرِيَّةِ التَّوْلِيدِيَّةِ" الكَامِنَةِ فِي اللِّسَانِ العَرَبِيِّ لِمُوَاجَهَةِ تَحَدِّيَاتِ الحَاضِرِ

وَالمُسْتَقْبَلِ. إِنَّهَا دَعْوَةٌ لِاسْتِعَادَةِ اللِّسَانِ لَا كَتُرَاثٍ، بَلْ كَطَاقَةٍ خَلَّاقَةٍ.

خُلَاصَةُ الأُطْرُوحَةِ: نَمُوذَجَانِ لِلِّسَانِ، وَعَقْلَانِ، وَحَضَارَتَانِ

لَقَدْ كَشَفَتِ المُقَارَنَةُ المُفَصَّلَةُ عَبْرَ فُصُولِ الكِتَابِ عَنْ وُجُودِ نَمُوذَجَيْنِ لُغَوِيَّيْنِ-مَعْرِفِيَّيْنِ مُتَبَايِنَيْنِ يَقِفَانِ عَلَى طَرَفَيْ نَقِيضٍ:

1. النَّمُوذَجُ العَرَبِيُّ العُضْوِيُّ-التَّوْلِيدِيُّ:

تَتَمَيَّزُ العَرَبِيَّةُ، كَمَا أَثْبَتْنَا، بِبِنْيَةٍ اشْتِقَاقِيَّةٍ-صَرْفِيَّةٍ قَائِمَةٍ عَلَى ثُنَائِيَّةِ **الجَذْرِ وَالوَزْنِ**، وَمَدْعُومَةٍ بِنِظَامِ **إِعْرَابٍ** دَقِيقٍ. هَذَا "المُحَرِّكُ التَّوْلِيدِيُّ" الدَّاخِلِيُّ خَلَقَ "اقْتِصَادًا لُغَوِيًّا" يَقُومُ عَلَى الاكْتِفَاءِ الذَّاتِيِّ، وَأَسَّسَ لِعَالَمٍ مَفْهُومِيٍّ مُتَرَابِطٍ كَالشَّبَكَةِ. هَذِهِ البِنْيَةُ اللُّغَوِيَّةُ، بِدَوْرِهَا، عَزَّزَتْ **"عَقْلِيَّةً اشْتِقَاقِيَّةً"** تَمِيلُ إِلَى التَّفْكِيرِ القِيَاسِيِّ وَتَبْحَثُ دَائِمًا عَنِ الأُصُولِ وَالعِلَلِ المُشْتَرَكَةِ. وَقَدْ تَجَلَّتْ هَذِهِ العَقْلِيَّةُ بِأَرْقَى صُوَرِهَا فِي المَنْهَجِيَّةِ الهِيرْمِنُوطِيقِيَّةِ وَالعَلَائِقِيَّةِ لِعُلُومٍ مِثْلِ **أُصُولِ الفِقْهِ**. وَعَلَى المُسْتَوَى الهُوِيَّاتِيِّ، أَنْتَجَتْ هَذِهِ البِنْيَةُ **هُوِيَّةً مُتَكَامِلَةً** تَنْصَهِرُ فِيهَا اللُّغَةُ وَالدِّينُ وَالقَانُونُ فِي نَسِيجٍ وَاحِدٍ مُتَمَاسِكٍ وَمُتَجَذِّرٍ.

2. النَّمُوذَجُ الإِغْرِيقِيُّ الهَجِينُ-التَّحْلِيلِيُّ:

عَلَى النَّقِيضِ، تَشَكَّلَتِ الإِغْرِيقِيَّةُ كَلِسَانٍ "هَجِينٍ" وَ"تَجْمِيعِيٍّ"، يَعْتَمِدُ عَلَى الاقْتِرَاضِ وَاللَّصْقِ وَالتَّرْكِيبِ المَزْجِيِّ. هَذَا "الاقْتِصَادُ اللُّغَوِيُّ" القَائِمُ عَلَى الاسْتِيرَادِ وَالتَّجْمِيعِ أَسَّسَ لِعَالَمٍ مَفْهُومِيٍّ "كُتَلِيٍّ" وَمُجَزَّأٍ. هَذِهِ البِنْيَةُ اللُّغَوِيَّةُ عَزَّزَتْ **"عَقْلِيَّةً تَحْلِيلِيَّةً"** تَمِيلُ إِلَى التَّفْكِيرِ التَّصْنِيفِيِّ وَتَقُومُ عَلَى تَفْكِيكِ الأَشْيَاءِ إِلَى مُكَوِّنَاتِهَا وَوَضْعِ حُدُودٍ فَاصِلَةٍ بَيْنَهَا. وَقَدْ تَجَلَّتْ هَذِهِ العَقْلِيَّةُ فِي ذِرْوَتِهَا فِي **المَنْطِقِ الصُّورِيِّ لأَرِسْطُو**، الَّذِي نَشَأَ كَنِظَامٍ خَارِجِيٍّ لِضَبْطِ اللِّسَانِ وَتَنْظِيمِهِ. وَعَلَى المُسْتَوَى الهُوِيَّاتِيِّ، أَنْتَجَتْ هَذِهِ

البِنْيَةُ **هُوِيَّةً تَرْكِيبِيَّةً (Modular)**، تَتَمَتَّعُ فِيهَا المُكَوِّنَاتُ الفِكْرِيَّةُ (كَالْفَلْسَفَةِ) بِاسْتِقْلَالِيَّةٍ نِسْبِيَّةٍ، مِمَّا جَعَلَهَا "قَابِلَةً لِلتَّصْدِيرِ" إِلَى حَضَارَاتٍ أُخْرَى.

إِنَّ هَذَا التَّمَايُزَ الجَوْهَرِيَّ بَيْنَ لِسَانٍ يُوَلِّدُ مَنْطِقَهُ وَهُوِيَّتَهُ مِنْ دَاخِلِهِ، وَلِسَانٍ يَتِمُّ ضَبْطُهُ بِمَنْطِقٍ خَارِجِيٍّ وَتَكُونُ هُوِيَّتُهُ مُجَزَّأَةً، يَقُودُنَا مُبَاشَرَةً إِلَى التَّفْكِيرِ فِي كَيْفِيَّةِ تَفْعِيلِ مَوَاطِنِ القُوَّةِ فِي النَّمُوذَجِ الأَوَّلِ لِمُوَاجَهَةِ تَحَدِّيَاتِ العَصْرِ.

خَارِطَةُ طَرِيقٍ لِلتَّجْدِيدِ: تَوْصِيَاتٌ لِاسْتِعَادَةِ اللِّسَانِ المُبْدِعِ

إِنَّ تَشْخِيصَ عَبْقَرِيَّةِ اللِّسَانِ العَرَبِيِّ وَمُقَارَنَتَهَا بِأَنْمُوذَجٍ آخَرَ لَا يَجِبُ أَنْ يَبْقَى حَبِيسَ الدَّفَاتِرِ الأَكَادِيمِيَّةِ، بَلْ يَجِبُ أَنْ يَتَحَوَّلَ إِلَى خَارِطَةِ طَرِيقٍ عَمَلِيَّةٍ تَهْدِفُ إِلَى تَجْدِيدِ حَيَوِيَّةِ اللِّسَانِ وَاسْتِعَادَةِ دَوْرِهِ كَقُوَّةٍ مُنْتِجَةٍ لِلْمَعْرِفَةِ وَالهُوِيَّةِ. وَفِي هَذَا السِّيَاقِ، نُقَدِّمُ التَّوْصِيَاتِ الاسْتِرَاتِيجِيَّةَ التَّالِيَةَ، مُرَتَّبَةً مِنَ الأَكْثَرِ تَأْسِيسًا إِلَى الأَكْثَرِ تَطْبِيقًا.

1. التَّوْصِيَةُ الأُولَى (التَّأْسِيسُ المَعْرِفِيُّ): إِنْتَاجُ "مَنْطِقِ البَيَانِ" كَبَدِيلٍ أَصِيلٍ

إِنَّ التَّوْصِيَةَ الأُولَى وَالأَهَمَّ لِهَذَا البَحْثِ هِيَ الدَّعْوَةُ إِلَى إِطْلَاقِ **مَشْرُوعٍ فِكْرِيٍّ جَمَاعِيٍّ وَطَوِيلِ الأَمَدِ لِتَأْسِيسِ وَتَقْنِينِ "مَنْطِقِ البَيَانِ"**، لِيَكُونَ بَدِيلًا مَعْرِفِيًّا أَصِيلًا لِلْمَنْطِقِ الأَرِسْطِيِّ وَمُشْتَقَّاتِهِ الَّذِي هَيْمَنَ عَلَى الفِكْرِ الإِسْلَامِيِّ لِقُرُونٍ. لَقَدْ أَثْبَتَتْ دِرَاسَتُنَا "غُرْبَةَ" المَنْطِقِ الصُّورِيِّ عَنْ بِنْيَةِ اللِّسَانِ العَرَبِيِّ. وَعَلَيْهِ، فَإِنَّ خُطْوَةَ التَّجْدِيدِ الحَقِيقِيَّةَ لَا تَكْمُنُ فِي "أَسْلَمَةِ" المَنْطِقِ الأَرِسْطِيِّ، بَلْ فِي تَجَاوُزِهِ بِالْكَامِلِ وَالعَوْدَةِ إِلَى المَنَابِعِ الأَصِيلَةِ.

يَنْبَغِي أَنْ يَنْبُعَ هَذَا المَنْطِقُ مُبَاشَرَةً مِنْ مَصْدَرَيْنِ:

- **البِنْيَةُ العَمِيقَةُ لِلِّسَانِ العَرَبِيِّ المُبِينِ:** مِنْ خِلَالِ تَحْلِيلِ "العَقْلِيَّةِ الاشْتِقَاقِيَّةِ" وَمَنْطِقِ "الأَصْلِ وَالفَرْعِ" وَ"العِلَّةِ" الكَامِنِ فِيهِ.

- **البِنْيَةُ الحِجَاجِيَّةُ وَالاسْتِدْلَالِيَّةُ لِلْقُرْآنِ الكَرِيمِ:** مِنْ خِلَالِ اسْتِخْرَاجِ أَدَوَاتِهِ فِي الإِقْنَاعِ وَالبُرْهَانِ، وَعَلَى رَأْسِهَا "قِيَاسُ الغَائِبِ عَلَى الشَّاهِدِ".

إِنَّ هَذَا المَشْرُوعَ لَيْسَ مُجَرَّدَ تَحْدِيثٍ لِعِلْمِ البَلَاغَةِ، بَلْ هُوَ مَشْرُوعٌ لِبِنَاءِ **نَظَرِيَّةِ مَعْرِفَةٍ** (Epistemology) **إِسْلَامِيَّةٍ أَصِيلَةٍ**، تُعِيدُ الاعْتِبَارَ لِلْبَيَانِ كَأَدَاةٍ لِلْكَشْفِ عَنِ الحَقِيقَةِ.

2. التَّوْصِيَةُ الثَّانِيَةُ (التَّقْنِينُ الصُّورِيُّ): مِنْ البَيَانِ إِلَى البُرْهَانِ الرِّيَاضِيِّ وَالحَوْسَبِيِّ

بَعْدَ تَأْسِيسِ المَبَادِئِ العَامَّةِ لِـ "مَنْطِقِ البَيَانِ"، تَأْتِي مَرْحَلَةُ تَرْجَمَتِهِ إِلَى أَنْسَاقٍ صُورِيَّةٍ دَقِيقَةٍ. وَنَقْتَرِحُ هُنَا ثَلَاثَةَ مَشَارِيعَ مُتَرَابِطَةٍ:

- **إِنْتَاجُ "مَنْطِقٍ رِيَاضِيٍّ بَيَانِيٍّ":**

كَمَا أَنَّ المَنْطِقَ الأَرِسْطِيَّ وَجَدَ تَجَلِّيَهُ فِي الهَنْدَسَةِ الإِقْلِيدِيَّةِ، فَإِنَّ "مَنْطِقَ البَيَانِ" العَلَائِقِيَّ وَالإِجْرَائِيَّ قَدْ يَجِدُ تَجَلِّيَهُ فِي نَمُوذَجٍ رِيَاضِيٍّ يَسْتَلْهِمُ رُوحَ **الجَبْرِ وَالخَوَارِزْمِيَّاتِ** الَّتِي طَوَّرَهَا عُلَمَاءُ المُسْلِمُونَ كَالْخُوَارِزْمِيِّ. إِنَّهُ مَشْرُوعٌ لِبِنَاءِ رِيَاضِيَّاتٍ تَقُومُ عَلَى العَلَاقَاتِ وَالإِجْرَاءَاتِ، لَا عَلَى الكَمِّيَّاتِ المُجَرَّدَةِ فَحَسْبُ.

- **إِنْتَاجُ "مَنْطِقٍ حَوْسَبِيٍّ" أَصِيلٍ:**

بِنَاءً عَلَى هَذَا المَنْطِقِ الرِّيَاضِيِّ، يُمْكِنُ تَطْوِيرُ أُسُسٍ لِمَنْطِقٍ حَوْسَبِيٍّ جَدِيدٍ، يَكُونُ أَكْثَرَ مُلَاءَمَةً لِمُعَالَجَةِ المَعَانِي السِّيَاقِيَّةِ وَالشَّبَكَاتِ الدَّلَالِيَّةِ المُعَقَّدَةِ.

- **إِنْتَاجُ "لُغَةِ البَيَانِ" كَلُغَةِ بَرْمَجَةٍ:**

الهَدَفُ النِّهَائِيُّ هُوَ تَصْمِيمُ **لُغَةِ بَرْمَجَةٍ عَالِيَةِ المُسْتَوَى** (Bayān Programming Language) تَكُونُ بِنْيَتُهَا المَنْطِقِيَّةُ مُسْتَلْهَمَةً مِنْ مَنْطِقِ الاشْتِقَاقِ وَالبَيَانِ. قَدْ تَتَفَوَّقُ مِثْلُ هَذِهِ اللُّغَةِ فِي مَجَالَاتِ الذَّكَاءِ الاصْطِنَاعِيِّ المَعْرِفِيِّ، وَمُعَالَجَةِ اللُّغَاتِ الطَّبِيعِيَّةِ، وَبِنَاءِ قَوَاعِدِ البَيَانَاتِ الدَّلَالِيَّةِ.

3. نَحْوَ ذَكَاءٍ اصْطِنَاعِيٍّ بَيَانِيٍّ

يُمَثِّلُ الذَّكَاءُ الاصْطِنَاعِيُّ المَيْدَانَ التَّطْبِيقِيَّ الأَهَمَّ لِهَذِهِ الأَفْكَارِ. وَبَدَلًا مِنِ اكْتِفَاءِ العَالَمِ العَرَبِيِّ بِاسْتِهْلَاكِ النَّمَاذِجِ اللُّغَوِيَّةِ الغَرْبِيَّةِ، نَدْعُو إِلَى:

- **إِطْلَاقِ مَشْرُوعٍ اسْتِرَاتِيجِيٍّ لِبِنَاءِ نَمَاذِجَ لُغَوِيَّةٍ عَرَبِيَّةٍ أَصِيلَةٍ** تَسْتَنِدُ إِلَى البِنْيَةِ القِيَاسِيَّةِ وَالخَوَارِزْمِيَّةِ لِلعَرَبِيَّةِ. فَالطَّابَعُ "القَاعِدِيُّ" لِلصَّرْفِ العَرَبِيِّ، كَمَا يُشِيرُ نِزَار حَبَش ((Habash, 2010))، يَجْعَلُهُ مُلَائِمًا لِبِنَاءِ نَمَاذِجَ أَكْثَرَ كَفَاءَةً وَأَسْهَلَ تَفْسِيرًا (Explainable AI) مِنَ النَّمَاذِجِ الإِحْصَائِيَّةِ البَحْتَةِ.

- **تَطْوِيرُ أَنْظِمَةِ ذَكَاءٍ اصْطِنَاعِيٍّ** تَعْتَمِدُ عَلَى "مَنْطِقِ البَيَانِ" الَّذِي يَقُومُ عَلَى فَهْمِ السِّيَاقِ وَالعَلَاقَاتِ وَالمَقَاصِدِ، لِيَكُونَ بَدِيلًا أَوْ مُكَمِّلًا لِلذَّكَاءِ الاصْطِنَاعِيِّ القَائِمِ عَلَى المَنْطِقِ الصُّورِيِّ.

4. فِي مَجَالِ البَحْثِ العِلْمِيِّ: نَحْوَ تَحْرِيرِ المَنْهَجِ

تُهَيْمِنُ عَلَى الدِّرَاسَاتِ اللُّغَوِيَّةِ وَالإِنْسَانِيَّةِ فِي العَالَمِ العَرَبِيِّ الأُطُرُ النَّظَرِيَّةُ وَالمَنْهَجِيَّةُ الغَرْبِيَّةُ. لِذَا، نَدْعُو إِلَى "**تَحْرِيرِ المَنْهَجِ**" مِنْ هَذِهِ التَّبَعِيَّةِ ((Smith, 2021)). وَيَتِمُّ ذَلِكَ مِنْ خِلَالِ:

- **تَجَاوُزِ التَّصْنِيفَاتِ اللُّغَوِيَّةِ الاسْتِشْرَاقِيَّةِ** (سَامِيَّة، هِنْدُوأُورُوبِيَّة) وَتَبَنِّي تَصْنِيفَاتٍ **بُنْيَوِيَّةٍ-وَظِيفِيَّةٍ** أَكْثَرَ عُمْقًا (عُضْوِيَّة/هَجِينَة، تَوْلِيدِيَّة/تَجْمِيعِيَّة).

- **تَطْوِيرِ "مَنْهَجِ تَحْلِيلٍ بَيَانِيٍّ-اشْتِقَاقِيٍّ"** أَصِيلٍ، يَنْطَلِقُ مِنْ فَهْمِ العَبْقَرِيَّةِ الدَّاخِلِيَّةِ لِلُّغَةِ العَرَبِيَّةِ (كَمَا فَعَلَ الجُرْجَانِيُّ وَابْنُ جِنِّي) لِيُصْبِحَ أَدَاةً لِتَحْلِيلِ الخِطَابِ وَنَقْدِهِ.

- **إِطْلَاقُ بَرَامِجَ أَكَادِيمِيَّةٍ مُتَخَصِّصَةٍ** تُعْنَى بِدِرَاسَةِ الاشْتِقَاقِ كَمَنْهَجِيَّةٍ مَعْرِفِيَّةٍ، وَتُعِيدُ الوَصْلَ بَيْنَ اللِّسَانِيَّاتِ وَعُلُومٍ كَأُصُولِ الفِقْهِ وَالفَلْسَفَةِ.

5. فِي مَجَالِ التَّعْلِيمِ وَالتَّرْبِيَةِ: مِنْ حِفْظِ القَوَاعِدِ إِلَى إِنْتَاجِ المَعْنَى

تُعَانِي مَنَاهِجُ تَعْلِيمِ العَرَبِيَّةِ مِنْ أَزْمَةٍ عَمِيقَةٍ، حَيْثُ حَوَّلَتْ لِسَانًا حَيًّا وَمُبْدِعًا إِلَى مَجْمُوعَةٍ مِنَ القَوَاعِدِ الصَّمَّاءِ. لِذَا، نَدْعُو إِلَى **"ثَوْرَةٍ تَرْبَوِيَّةٍ"** تَهْدِفُ إِلَى:

- **تَحْوِيلِ تَعْلِيمِ العَرَبِيَّةِ** مِنْ تَلْقِينِ القَوَاعِدِ إِلَى اكْتِسَابِ اللِّسَانِ بِوَصْفِهِ **"جِهَازَ تَفْكِيرٍ"**. يَجِبُ تَدْرِيبُ الطُّلَّابِ عَلَى "اللَّعِبِ" بِالْجُذُورِ وَالأَوْزَانِ، وَاكْتِشَافِ المَنْطِقِ الدَّاخِلِيِّ لِلُّغَةِ بِأَنْفُسِهِمْ.

- تَفْعِيلُ **"التَّعْرِيبِ الاشْتِقَاقِيِّ"** لِلْمُصْطَلَحَاتِ العِلْمِيَّةِ وَالتِّقْنِيَّةِ. فَبَدَلًا مِنَ الاسْتِسْلَامِ لِلتَّرْجَمَةِ الحَرْفِيَّةِ أَوِ النَّقْلِ الصَّوْتِيِّ، يَجِبُ تَشْجِيعُ المُؤَسَّسَاتِ العِلْمِيَّةِ عَلَى تَوْلِيدِ مُصْطَلَحَاتٍ أَصِيلَةٍ مِنَ الجُذُورِ العَرَبِيَّةِ الحَيَّةِ.

لِكَيْ تَنْجَحَ هَذِهِ المَشَارِيعُ الكُبْرَى، لَا بُدَّ مِنْ تَأْسِيسِ بُنْيَةٍ تَحْتِيَّةٍ أَكَادِيمِيَّةٍ وَتَرْبَوِيَّةٍ تَدْعَمُهَا. وَيَتِمُّ ذَلِكَ مِنْ خِلَالِ:

- **تَحْرِيرُ المَنْهَجِ البَحْثِيِّ:** مِنْ خِلَالِ تَجَاوُزِ التَّصْنِيفَاتِ اللُّغَوِيَّةِ الاسْتِشْرَاقِيَّةِ وَتَطْوِيرِ مَنَاهِجَ تَحْلِيلٍ بَيَانِيَّةٍ-اشْتِقَاقِيَّةٍ أَصِيلَةٍ، وَإِعَادَةِ الوَصْلِ بَيْنَ اللِّسَانِيَّاتِ وَعُلُومٍ كَأُصُولِ الفِقْهِ ((Smith, 2021)).
- **ثَوْرَةٌ تَرْبَوِيَّةٌ:** مِنْ خِلَالِ تَحْوِيلِ تَعْلِيمِ العَرَبِيَّةِ مِنْ تَلْقِينِ القَوَاعِدِ إِلَى اكْتِسَابِ اللِّسَانِ بِوَصْفِهِ "جِهَازَ تَفْكِيرٍ"، وَتَفْعِيلِ "التَّعْرِيبِ الاشْتِقَاقِيِّ" لِلْمُصْطَلَحَاتِ العِلْمِيَّةِ.
- **تَعْزِيزُ الثِّقَةِ بِاللِّسَانِ:** عَلَى المُجْتَمَعِ المَدَنِيِّ وَالمُؤَسَّسَاتِ الثَّقَافِيَّةِ تَعْزِيزُ ثِقَةِ الأَجْيَالِ بِقُدْرَةِ العَرَبِيَّةِ عَلَى الإِبْدَاعِ وَمُوَكَبَةِ العَصْرِ.

خَاتِمَةٌ: الكَلِمَةُ الأَخِيرَةُ

فِي نِهَايَةِ هَذِهِ الرِّحْلَةِ، نَعُودُ لِنُؤَكِّدَ أَنَّ المَعْرَكَةَ عَلَى مُسْتَقْبَلِ اللِّسَانِ العَرَبِيِّ هِيَ فِي جَوْهَرِهَا مَعْرَكَةٌ عَلَى **الحَقِّ فِي إِنْتَاجِ المَعْنَى وَالمَعْرِفَةِ وَالهُوِيَّةِ بِأَدَوَاتٍ أَصِيلَةٍ**. إِنَّ الخِيَارَ المَطْرُوحَ عَلَيْنَا اليَوْمَ هُوَ بَيْنَ أَنْ نَتَحَوَّلَ إِلَى مُجْتَمَعَاتٍ تَسْتَهْلِكُ مَفَاهِيمَهَا وَقِيَمَهَا وَأَنْمَاطَ تَفْكِيرِهَا مِنْ خِلَالِ أَلْسِنَةٍ هَجِينَةٍ وَمُهَيْمِنَةٍ، أَوْ أَنْ نُعِيدَ تَفْعِيلَ "المُحَرِّكِ التَّوْلِيدِيِّ" العَبْقَرِيِّ الَّذِي نَمْتَلِكُهُ فِي لِسَانِنَا لِنُبْدِعَ حُلُولَنَا الخَاصَّةَ وَنُسَاهِمَ فِي الحَضَارَةِ الإِنْسَانِيَّةِ مِنْ مَوْقِعِ الأَصَالَةِ وَالنِّدِّيَّةِ. إِنَّ تَجْدِيدَ الحَضَارَةِ يَبْدَأُ مِنْ تَجْدِيدِ اللِّسَانِ.

الفَصْلُ التَّاسِعُ: مَا بَعْدَ الهُوِيَّةِ وَاللِّسَانِ

نَحْوَ مَشْرُوعٍ بَحْثِيٍّ لِتَأْصِيلِ المَعْرِفَةِ وَتَوْسِيعِ المُقَارَنَةِ

مُقَدِّمَةٌ: مِنْ خَاتِمَةِ البَحْثِ إِلَى آفَاقِ المَعْرِفَةِ

لَا يَنْتَهِي أَيُّ عَمَلٍ فِكْرِيٍّ جَادٍّ عِنْدَ خَاتِمَتِهِ، بَلْ إِنَّ قِيمَتَهُ الحَقِيقِيَّةَ تَكْمُنُ فِي قُدْرَتِهِ عَلَى فَتْحِ آفَاقٍ جَدِيدَةٍ لِلتَّسَاؤُلِ وَالبَحْثِ. وَهَذَا القِسْمُ الخِتَامِيُّ لَيْسَ مُجَرَّدَ تَلْخِيصٍ، بَلْ هُوَ إِعْلَانُ بِدَايَةٍ وَدَعْوَةٌ لِمُوَاصَلَةِ المَسِيرِ. فَبَعْدَ أَنْ قَامَتْ هَذِهِ الدِّرَاسَةُ بِتَشْرِيحِ "مِعْمَارِيَّتَيْنِ" مُتَبَايِنَتَيْنِ لِلُّغَةِ وَالفِكْرِ وَالهُوِيَّةِ —المِعْمَارِيَّةُ العَرَبِيَّةُ "العُضْوِيَّةُ-التَّوْلِيدِيَّةُ" وَالمِعْمَارِيَّةُ الإِغْرِيقِيَّةُ "الهَجِينَةُ-التَّرْكِيبِيَّةُ"— فَإِنَّهَا تَفْتَحُ البَابَ أَمَامَ مَشْرُوعَيْنِ بَحْثِيَّيْنِ اسْتِرَاتِيجِيَّيْنِ لِلْمُسْتَقْبَلِ.

يَهْدِفُ هَذَا الفَصْلُ إِلَى رَسْمِ المَلَامِحِ العَرِيضَةِ لِهَذَيْنِ المَشْرُوعَيْنِ. **المَشْرُوعُ الأَوَّلُ** هُوَ مَشْرُوعٌ "أُفُقِيٌّ" يَهْدِفُ إِلَى **تَوْسِيعِ حَقْلِ المُقَارَنَةِ**، حَيْثُ نَقْتَرِحُ تَطْبِيقَ المَنْهَجِ المُقَارَنِ (العُضْوِيُّ مُقَابِلَ الهَجِينِ) عَلَى لُغَاتٍ وَحَضَارَاتٍ أُخْرَى، كَالصِّينِيَّةِ وَاللُّغَاتِ الأُورُوبِيَّةِ الحَدِيثَةِ، لِاخْتِبَارِ صَلَاحِيَةِ النَّمُوذَجِ وَإِغْنَائِهِ. **وَالمَشْرُوعُ الثَّانِي** هُوَ مَشْرُوعٌ "عَمُودِيٌّ" يَهْدِفُ إِلَى **تَأْصِيلِ المَعْرِفَةِ**، حَيْثُ نَدْعُو إِلَى تَجَاوُزِ مُجَرَّدِ تَحْلِيلِ "مَنْطِقِ البَيَانِ" العَرَبِيِّ إِلَى بِنَاءِ

نَظَرِيَّةٍ مَعْرِفِيَّةٍ (Epistemology) **أَصِيلَةٍ وَكَامِلَةٍ** تَنْبُعُ مِنَ التَّقْلِيدِ البَيَانِيِّ العَرَبِيِّ-الإِسْلَامِيِّ، لِتَكُونَ بَدِيلًا عَنِ النَّظَرِيَّاتِ المَعْرِفِيَّةِ الغَرْبِيَّةِ المُهَيْمِنَةِ.

إِنَّ هَذَيْنِ المَشْرُوعَيْنِ المُتَكَامِلَيْنِ يُمَثِّلَانِ خُطْوَةً ضَرُورِيَّةً لِلْخُرُوجِ مِنْ دَائِرَةِ "دِرَاسَةِ التُّرَاثِ" إِلَى "التَّفْكِيرِ بِالتُّرَاثِ" وَمَعَهُ، فِي مُوَاجَهَةِ تَحَدِّيَاتِ الحَاضِرِ.

تَوْسِيعُ حَقْلِ المُقَارَنَةِ: اللِّسَانُ العُضْوِيُّ وَالهَجِينُ فِي سِيَاقَاتٍ جَدِيدَةٍ

لَقَدْ قَدَّمَتْ هَذِهِ الدِّرَاسَةُ "نَمُوذَجًا تَحْلِيلِيًّا" يَرْتَكِزُ عَلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ اللِّسَانِ العُضْوِيِّ-التَّوْلِيدِيِّ وَاللِّسَانِ الهَجِينِ-التَّرْكِيبِيِّ. وَلِاخْتِبَارِ مَدَى صَلَاحِيَةِ هَذَا النَّمُوذَجِ وَقُدْرَتِهِ التَّفْسِيرِيَّةِ، فَإِنَّ الخُطْوَةَ المَنْطِقِيَّةَ التَّالِيَةَ هِيَ تَطْبِيقُهُ عَلَى سِيَاقَاتٍ لُغَوِيَّةٍ وَحَضَارِيَّةٍ جَدِيدَةٍ. نَقْتَرِحُ هُنَا ثَلَاثَةَ مَيَادِينَ بَحْثِيَّةٍ وَاعِدَةٍ:

1. البَحْثُ عَنْ نَمُوذَجٍ ثَالِثٍ: حَالَةُ اللُّغَةِ الصِّينِيَّةِ الكِلَاسِيكِيَّةِ

تُمَثِّلُ اللُّغَةُ الصِّينِيَّةُ الكِلَاسِيكِيَّةُ تَحَدِّيًا مُثِيرًا لِنَمُوذَجِنَا الثُّنَائِيِّ. فَهِيَ لَيْسَتْ لُغَةً اشْتِقَاقِيَّةً كَالعَرَبِيَّةِ، وَلَيْسَتْ لُغَةً تَصْرِيفِيَّةً-تَرْكِيبِيَّةً كَالإِغْرِيقِيَّةِ، بَلْ هِيَ لُغَةٌ "عَازِلَةٌ" (Isolating Language) بِشَكْلٍ أَسَاسِيٍّ، تَعْتَمِدُ عَلَى "المَقْطَعِ-الكَلِمَةِ" (Logogram) كَوَحْدَةٍ أَسَاسِيَّةٍ، وَعَلَى تَرْتِيبِ الكَلِمَاتِ الصَّارِمِ وَالأَدَوَاتِ النَّحْوِيَّةِ لِتَحْدِيدِ المَعْنَى. السُّؤَالُ هُنَا: أَيُّ نَوْعٍ مِنَ "العَقْلِيَّاتِ" تُنْتِجُهُ هَذِهِ البِنْيَةُ؟ يُشِيرُ فَلَاسِفَةٌ مُقَارِنُونَ مِثْلُ فَرَانْسْوَا جُولْيَان إِلَى أَنَّ الفِكْرَ الصِّينِيَّ يَمِيلُ إِلَى التَّفْكِيرِ "التَّرَابُطِيِّ" أَوِ "التَّلَازُمِيِّ" (Correlative Thinking)، حَيْثُ تُفْهَمُ الأَشْيَاءُ مِنْ خِلَالِ تَجَاوُرِهَا وَتَأْثِيرِهَا المُتَبَادَلِ فِي شَبَكَةٍ مِنَ العَلَاقَاتِ، لَا مِنْ خِلَالِ البَحْثِ عَنْ "أَصْلٍ" وَاحِدٍ أَوْ "تَصْنِيفٍ" هَرَمِيٍّ ((Jullien, 2004)). إِنَّ إِجْرَاءَ مُقَارَنَةٍ ثُلَاثِيَّةٍ بَيْنَ العَرَبِيَّةِ وَالإِغْرِيقِيَّةِ وَالصِّينِيَّةِ قَدْ يَكْشِفُ عَنْ ثَلَاثَةِ أَنْمَاطٍ أَسَاسِيَّةٍ لِلْعَقْلَانِيَّةِ البَشَرِيَّةِ.

2. تَحْلِيلُ النَّمُوذَجِ الهَجِينِ الأَقْصَى: حَالَةُ اللُّغَةِ الإِنْجِلِيزِيَّةِ

تُعَدُّ اللُّغَةُ الإِنْجِلِيزِيَّةُ المِثَالَ الأَكْثَرَ تَطَرُّفًا عَلَى اللِّسَانِ الهَجِينِ. فَهِيَ لُغَةٌ ذَاتُ قَوَاعِدَ جِرْمَانِيَّةٍ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ مِنْ نِصْفِ مُعْجَمِهَا مُقْتَرَضٌ مِنَ اللَّاتِينِيَّةِ وَالفَرَنْسِيَّةِ. السُّؤَالُ هُنَا: مَا هِيَ "العَقْلِيَّةُ" الَّتِي تُنْتِجُهَا هَذِهِ الهَجَنَةُ المُكَثَّفَةُ؟ هَلْ يُمْكِنُ رَبْطُ هَذِهِ البِنْيَةِ "التَّلْفِيقِيَّةِ" بِبَعْضِ سِمَاتِ الثَّقَافَةِ الأَنْجُلُوسَاكْسُونِيَّةِ، كَالبَرَاغْمَاتِيَّةِ، وَالقُدْرَةِ عَلَى اسْتِيعَابِ التَّأْثِيرَاتِ الخَارِجِيَّةِ، وَالمَيْلِ إِلَى الفَلْسَفَةِ التَّجْرِيبِيَّةِ بَدَلًا مِنَ المِيتَافِيزِيقَا النَّسَقِيَّةِ؟ إِنَّ تَطْبِيقَ مَنْهَجِنَا عَلَى الإِنْجِلِيزِيَّةِ قَدْ يُقَدِّمُ فَهْمًا جَدِيدًا لِلْجُذُورِ اللُّغَوِيَّةِ لِلْحَدَاثَةِ.

3. دِرَاسَةُ "التَّهْجِينِ" المُعَاصِرِ: أَثَرُ العَوْلَمَةِ اللُّغَوِيَّةِ

يُمْكِنُ اسْتِخْدَامُ النَّمُوذَجِ أَيْضًا لِتَحْلِيلِ الوَضْعِ الرَّاهِنِ لِلُّغَاتِ العُضْوِيَّةِ، كَالعَرَبِيَّةِ، الَّتِي تَتَعَرَّضُ لِضَغْطِ "تَهْجِينٍ" مُكَثَّفٍ بِفِعْلِ هَيْمَنَةِ اللُّغَةِ الإِنْجِلِيزِيَّةِ. يُمْكِنُ لِلْبَاحِثِينَ إِجْرَاءُ دِرَاسَاتٍ مَيْدَانِيَّةٍ وَنَفْسِيَّةٍ-لُغَوِيَّةٍ لِقِيَاسِ الآثَارِ الإِدْرَاكِيَّةِ وَالهُوِيَّاتِيَّةِ لِهَذَا التَّحَوُّلِ. هَلْ يُؤَدِّي الاسْتِخْدَامُ المُكَثَّفُ لِلْمُصْطَلَحَاتِ الأَجْنَبِيَّةِ المُعَرَّبَةِ إِلَى "تَشَتُّتٍ دَلَالِيٍّ" فِي وَعْيِ الأَجْيَالِ الجَدِيدَةِ؟ هَلْ يُضْعِفُ قُدْرَتَهُمْ عَلَى التَّفْكِيرِ الاشْتِقَاقِيِّ؟ إِنَّ هَذَا المَجَالَ يَرْبِطُ التَّحْلِيلَ التَّارِيخِيَّ بِقَضَايَا مُعَاصِرَةٍ مُلِحَّةٍ ((Fishman, 1972)).

تَأْصِيلُ المَعْرِفَةِ: مَلَامِحُ نَظَرِيَّةٍ بَيَانِيَّةٍ فِي المَعْرِفَةِ (Epistemology of Bayān)

إِنَّ المَشْرُوعَ الثَّانِي، وَهُوَ الأَكْثَرُ طُمُوحًا وَأَهَمِّيَّةً، يَهْدِفُ إِلَى تَجَاوُزِ مُجَرَّدِ "وَصْفِ" المَنْطِقِ البَيَانِيِّ العَرَبِيِّ إِلَى "بِنَائِهِ" وَتَقْدِيمِهِ كَنَظَرِيَّةٍ مَعْرِفِيَّةٍ (Epistemology) أَصِيلَةٍ وَمُتَكَامِلَةٍ، تَصْلُحُ لِأَنْ تَكُونَ نِدًّا وَبَدِيلًا لِلنَّظَرِيَّاتِ المَعْرِفِيَّةِ الغَرْبِيَّةِ الَّتِي تَرْتَكِزُ عَلَى الإِرْثِ الإِغْرِيقِيِّ.

الحَاجَةُ إِلَى نَظَرِيَّةٍ بَدِيلَةٍ:

تُهَيْمِنُ عَلَى الفَلْسَفَةِ الأَكَادِيمِيَّةِ اليَوْمَ نَظَرِيَّاتٌ مَعْرِفِيَّةٌ تَدُورُ حَوْلَ إِشْكَالِيَّاتٍ وَرِثَتْهَا مِنَ الفَلْسَفَةِ الإِغْرِيقِيَّةِ، كَالثُّنَائِيَّةِ بَيْنَ الذَّاتِ وَالمَوْضُوعِ، وَالبَحْثِ عَنْ أَسَاسٍ يَقِينِيٍّ لِلْمَعْرِفَةِ، وَتَقْدِيسِ المَنْطِقِ الصُّورِيِّ. إِنَّ هَذَا النَّمُوذَجَ لَيْسَ كَوْنِيًّا، وَقَدْ حَانَ الوَقْتُ لِتَطْوِيرِ نَمَاذِجَ بَدِيلَةٍ تَنْبُعُ مِنْ تَقَالِيدَ فِكْرِيَّةٍ أُخْرَى. إِنَّ مَشْرُوعًا كَهَذَا يُعَدُّ عَمَلًا مِن أَعْمَالِ **"التَّحْرِيرِ المَعْرِفِيِّ"** (Epistemic Decolonization)، أَيْ تَحْرِيرِ الفِكْرِ مِنْ هَيْمَنَةِ نَمُوذَجٍ وَاحِدٍ ((Mignolo, 2011).

مَبَادِئُ النَّظَرِيَّةِ المُقْتَرَحَةِ:

يُمْكِنُ لِنَظَرِيَّةِ المَعْرِفَةِ البَيَانِيَّةِ هَذِهِ أَنْ تَقُومَ عَلَى عِدَّةِ مَبَادِئَ مُسْتَنْبَطَةٍ مِنَ القُرْآنِ وَمِنَ البِنْيَةِ اللُّغَوِيَّةِ العَرَبِيَّةِ، مِنْهَا:

1. **المَعْرِفَةُ كَـ "كَشْفٍ"** (Revelation/Unveiling): عَلَى عَكْسِ النَّظَرِيَّاتِ الغَرْبِيَّةِ الَّتِي تَرَى المَعْرِفَةَ كَـ "بِنَاءٍ" عَقْلِيٍّ أَوْ "تَمْثِيلٍ" لِلْوَاقِعِ، تَقُومُ النَّظَرِيَّةُ البَيَانِيَّةُ عَلَى أَنَّ المَعْرِفَةَ الحَقِيقِيَّةَ هِيَ "كَشْفٌ" عَنْ حَقِيقَةٍ مَوْجُودَةٍ مُسْبَقًا وَلَكِنَّهَا مَحْجُوبَةٌ. وَوَظِيفَةُ العَقْلِ وَالقَلْبِ هِيَ إِزَالَةُ الحُجُبِ.

2. **العَالَمُ كَنَصٍّ مِنَ "الآيَاتِ"**: المَنْهَجُ الأَسَاسِيُّ لِاكْتِسَابِ المَعْرِفَةِ لَيْسَ التَّحْلِيلَ المَنْطِقِيَّ لِلْمُجَرَّدَاتِ، بَلْ هُوَ **التَّأْوِيلُ الهِيرْمِنُوطِيقِيُّ** (Ta'wīl/Isti'bār) لِلْآيَاتِ أَوِ العَلَامَاتِ المَبْثُوثَةِ فِي "كِتَابَيْنِ": كِتَابُ الوَحْيِ (القُرْآنُ) وَكِتَابُ الكَوْنِ.

3. **وَحْدَةُ العَارِفِ وَالمَعْرُوفِ**: لَا تَهْدِفُ المَعْرِفَةُ إِلَى تَحْقِيقِ "مَوْضُوعِيَّةٍ" فَاصِلَةٍ بَيْنَ الذَّاتِ العَارِفَةِ وَالمَوْضُوعِ المَعْرُوفِ، بَلْ إِلَى تَحْقِيقِ "تَحَوُّلٍ" فِي وُجُودِ العَارِفِ نَفْسِهِ. فَالمَعْرِفَةُ

الحَقِيقِيَّةُ تُغَيِّرُ صَاحِبَهَا وَتَرْفَعُهُ. وَهَذِهِ فِكْرَةٌ مِحْوَرِيَّةٌ فِي الفَلْسَفَةِ الإِشْرَاقِيَّةِ وَالتَّصَوُّفِ ((Chittick, 2010)).

4. **اللُّغَةُ كَمِعْيَارٍ لِلْحَقِيقَةِ:** فِي هَذِهِ النَّظَرِيَّةِ، لَا تَنْفَصِلُ الحَقِيقَةُ عَنِ البَيَانِ. فَالْخِطَابُ البَلِيغُ، المُتَمَاسِكُ بُنْيَوِيًّا، وَالمُتَنَاغِمُ صَوْتِيًّا، هُوَ أَقْرَبُ إِلَى الحَقِيقَةِ مِنَ الخِطَابِ المُفَكَّكِ وَالنَّاشِزِ. إِنَّ "مَنْطِقَ البَيَانِ"، كَمَا فَصَّلَهُ الجُرْجَانِيُّ ((**الجرجاني**, 1984))، يُصْبِحُ هُوَ أَدَاةَ المَعْرِفَةِ وَمِعْيَارَهَا.

خَاتِمَةٌ اسْتِشْرَافِيَّةٌ

إِنَّ البَحْثَ الَّذِي قَدَّمْنَاهُ فِي هَذَا الكِتَابِ لَيْسَ نِهَايَةَ المَطَافِ، بَلْ هُوَ دَعْوَةٌ صَرِيحَةٌ لِفَتْحِ آفَاقٍ جَدِيدَةٍ. لَقَدْ حَاوَلْنَا أَنْ نُقَدِّمَ أَدَاةً تَحْلِيلِيَّةً جَدِيدَةً (نَمُوذَجُ اللِّسَانِ العُضْوِيِّ/الهَجِينِ)، وَأَنْ نُشِيرَ إِلَى مَشْرُوعٍ فَكْرِيٍّ أَكْبَرَ وَأَكْثَرَ إِلْحَاحًا (تَأْسِيسُ نَظَرِيَّةِ مَعْرِفَةٍ بَيَانِيَّةٍ أَصِيلَةٍ).

إِنَّ هَذَيْنِ المَشْرُوعَيْنِ، تَوسِيعُ المُقَارَنَةِ وَتَأْصِيلُ المَعْرِفَةِ، هُمَا وَجْهَانِ لِعُمْلَةٍ وَاحِدَةٍ، وَهُمَا مَعًا يُشَكِّلَانِ خُطْوَةً ضَرُورِيَّةً لِتَجَاوُزِ النَّظْرَةِ المَرْكَزِيَّةِ الأُورُوبِيَّةِ لِتَارِيخِ الفِكْرِ، وَلِتَقْدِيرِ التَّنَوُّعِ العَمِيقِ فِي الطُّرُقِ الَّتِي سَعَتْ بِهَا الحَضَارَاتُ الإِنْسَانِيَّةُ لِفَهْمِ الوُجُودِ. إِنَّ مُسْتَقْبَلَ العَرَبِيَّةِ لَا يُبْنَى عَلَى الدِّفَاعِ عَنِ النَّحْوِ، بَلْ عَلَى اسْتِعَادَةِ مَوْقِعِهَا كَلِسَانٍ تَوْلِيدِيٍّ لِلْهُوِيَّةِ وَالمَعْرِفَةِ. وَلِذَا، يَجِبُ أَنْ تَنْتَقِلَ الدِّرَاسَاتُ المُسْتَقْبَلِيَّةُ مِنَ الوَصْفِ الشَّكْلَانِيِّ إِلَى البِنَاءِ المَنْهَجِيِّ، لِتُقَدِّمَ نَمَاذِجَ بَدِيلَةً وَفَلْسَفَةً لُغَوِيَّةً جَدِيدَةً تُجَذِّرُ العَرَبِيَّةَ فِي عَالَمٍ مُتَحَوِّلٍ.

الخَاتِمَةُ: اللِّسَانُ مَصِيرًا

فِي نِهَايَةِ هَذِهِ الرِّحْلَةِ الطَّوِيلَةِ فِي أَعْمَاقِ "المِعْمَارِيَّاتِ اللُّغَوِيَّةِ" المُؤَسِّسَةِ لِلْفِكْرِ، نَصِلُ إِلَى خُلَاصَةٍ جَوْهَرِيَّةٍ: إِنَّ اللِّسَانَ لَيْسَ مُجَرَّدَ أَدَاةٍ يَسْتَخْدِمُهَا العَقْلُ، بَلْ هُوَ القَالَبُ الَّذِي يُصَبُّ فِيهِ العَقْلُ، وَالبُوصَلَةُ الَّتِي تُرْسِمُ بِهَا مَسَارَاتُ الحَضَارَةِ. لَقَدْ سَعَتْ هَذِهِ الدِّرَاسَةُ المُقَارَنَةُ بَيْنَ اللِّسَانَيْنِ العَرَبِيِّ وَالإِغْرِيقِيِّ إِلَى تَجَاوُزِ الوَصْفِ البُنْيَوِيِّ السَّاكِنِ لِتَقْتَرِحَ نَمُوذَجًا دِينَامِيكِيًّا يُبَيِّنُ كَيْفَ أَنَّ "جِينَاتِ" اللُّغَةِ تُحَدِّدُ إِلَى حَدٍّ بَعِيدٍ "جِينَاتِ" الفِكْرِ وَالهُوِيَّةِ.

لَقَدْ كَشَفَتْ مُقَارَنَتُنَا عَنْ وُجُودِ نَمُوذَجَيْنِ مُتَبَايِنَيْنِ لَا فَقَطْ فِي اللِّسَانِ، بَلْ فِي الوُجُودِ الحَضَارِيِّ بِأَكْمَلِهِ.

النَّمُوذَجُ الأَوَّلُ،

الَّذِي تُمَثِّلُهُ العَرَبِيَّةُ، هُوَ نَمُوذَجُ **اللِّسَانِ العُضْوِيِّ التَّوْلِيدِيِّ**. بِنْيَتُهُ القَائِمَةُ عَلَى الجَذْرِ وَالوَزْنِ تُؤَسِّسُ لِعَالَمٍ مَفْهُومِيٍّ "شَبَكِيٍّ" وَمُتَرَابِطٍ، وَتُرَسِّخُ "عَقْلِيَّةً اشْتِقَاقِيَّةً" تَبْحَثُ دَائِمًا عَنِ الأَصْلِ وَالعِلَّةِ. هَذِهِ العَقْلِيَّةُ وَجَدَتْ تَجَلِّيَهَا الأَسْمَى فِي مَنْطِقٍ "بَيَانِيٍّ" وَ"قِيَاسِيٍّ" نَابِعٍ مِنْ صُلْبِ اللِّسَانِ، وَتَجَسَّدَتْ فِي عُلُومٍ كَأُصُولِ الفِقْهِ. النَّتِيجَةُ كَانَتْ هُوِيَّةً مُتَكَامِلَةً وَمُنْصَهِرَةً، تَتَّحِدُ فِيهَا اللُّغَةُ وَالدِّينُ وَالمَنْهَجُ.

النَّمُوذَجُ الثَّانِي،

الَّذِي تُمَثِّلُهُ الإِغْرِيقِيَّةُ، هُوَ نَمُوذَجُ **اللِّسَانِ الهَجِينِ التَّرْكِيبِيِّ**. بِنْيَتُهُ القَائِمَةُ عَلَى الاقْتِرَاضِ وَالتَّجْمِيعِ تُؤَسِّسُ لِعَالَمٍ مَفْهُومِيٍّ "كُتَلِيٍّ" وَمُجَزَّأٍ، وَتُرَسِّخُ "عَقْلِيَّةً تَحْلِيلِيَّةً" تَبْحَثُ عَنِ التَّصْنِيفِ وَالحَدِّ الفَاصِلِ. هَذِهِ العَقْلِيَّةُ، بِسَبَبِ افْتِقَارِ اللِّسَانِ لِمَنْطِقٍ دَاخِلِيٍّ مُنْتَظِمٍ، اضْطُرَّتْ إِلَى "اخْتِرَاعِ" مَنْطِقٍ صُورِيٍّ خَارِجِيٍّ لِيَقُومَ بِضَبْطِهَا، تَجَسَّدَ فِي المَنْطِقِ الأَرِسْطِيِّ. النَّتِيجَةُ كَانَتْ هُوِيَّةً "تَرْكِيبِيَّةً" (Modular)، تَتَمَتَّعُ فِيهَا مُكَوِّنَاتُ الفِكْرِ بِاسْتِقْلَالِيَّةٍ نِسْبِيَّةٍ، مِمَّا جَعَلَهَا "قَابِلَةً لِلتَّصْدِيرِ" وَالانْفِصَالِ عَنْ لِسَانِهَا الأُمِّ.

إِنَّ هَذَا التَّبَايُنَ لَيْسَ مُجَرَّدَ تَفْصِيلٍ تَارِيخِيٍّ، بَلْ هُوَ مِفْتَاحُ فَهْمِ مَسَارَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ لِلْوَعْيِ البَشَرِيِّ. فَالْحَضَارَةُ الإِسْلَامِيَّةُ، بِفَضْلِ لِسَانِهَا، تَأَسَّسَتْ عَلَى مَنْطِقِ **الوَصْلِ وَالتَّأْوِيلِ**، حَيْثُ المَعْرِفَةُ هِيَ كَشْفٌ عَنِ العَلَاقَاتِ الَّتِي تَرْبِطُ الفُرُوعَ بِالأَصْلِ الأَعْلَى. أَمَّا الحَضَارَةُ الغَرْبِيَّةُ، الوَرِيثَةُ لِلْإِرْثِ الإِغْرِيقِيِّ، فَقَدْ تَأَسَّسَتْ عَلَى مَنْطِقِ **الفَصْلِ وَالتَّحْلِيلِ**، حَيْثُ المَعْرِفَةُ هِيَ تَصْنِيفُ العَالَمِ وَوَضْعُهُ فِي فَئَاتٍ مُنْضَبِطَةٍ.

فِي خِتَامِ هَذِهِ الرِّحْلَةِ المَعْرِفِيَّةِ، نَعُودُ إِلَى النُّقْطَةِ الَّتِي انْطَلَقْنَا مِنْهَا، وَالَّتِي يُكَثِّفُهَا عُنْوَانُ هَذَا الكِتَابِ: **"مَنْطِقُ اللِّسَانِ: العَرَبِيَّةُ وَالإِغْرِيقِيَّةُ وَجْهًا لِوَجْهٍ"**. فَهَذِهِ المُوَاجَهَةُ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ مُقَارَنَةٍ تَارِيخِيَّةٍ، بَلْ هِيَ خُلَاصَةٌ بُنْيَوِيَّةٌ عَمِيقَةٌ لِكُلِّ مَا سَبَقَ. لَقَدْ أَثْبَتَتْ دِرَاسَتُنَا أَنَّ الهُوِيَّةَ الَّتِي تَنْشَأُ مِنْ **لِسَانٍ عُضْوِيٍّ** تَجِدُ تَمَاسُكَهَا وَمَنْطِقَهَا فِي ذَاتِ اللِّسَانِ، فَتَكُونُ هُوِيَّةً أَصِيلَةً وَمُتَجَذِّرَةً. أَمَّا الهُوِيَّةُ الَّتِي تَنْشَأُ مِنْ **لِسَانٍ هَجِينٍ** فَتَظَلُّ تَبْحَثُ عَنْ تَمَاسُكِهَا فِي أَنْظِمَةٍ خَارِجِيَّةٍ —كَالفَلْسَفَةِ المُجَرَّدَةِ أَوِ المَنْطِقِ الصُّورِيِّ— فَتَكُونُ هُوِيَّةً مُرَكَّبَةً، تَجِدُ يَقِينَهَا خَارِجَ ذَاتِهَا اللُّغَوِيَّةِ.

إِنَّ الدَّعْوَةَ النِّهَائِيَّةَ لِهَذَا البَحْثِ هِيَ إِلَى إِعَادَةِ اكْتِشَافِ اللِّسَانِ العَرَبِيِّ لَا كَتُرَاثٍ يُحْفَظُ، بَلْ **كَطَاقَةٍ مَعْرِفِيَّةٍ وَمَنْهَجِيَّةٍ حَيَّةٍ**. فَكَمَا قَالَ الشَّاعِرُ: "لُغَتِي

هُوِيَّتِي". وَقَدْ حَاوَلْنَا فِي هَذَا الكِتَابِ أَنْ نُبَيِّنَ أَنَّ هَذَا لَيْسَ شِعْرًا فَحَسْبُ، بَلْ هُوَ حَقِيقَةٌ بُنْيَوِيَّةٌ عَمِيقَةٌ. فَمُسْتَقْبَلُ الهُوِيَّةِ يَبْدَأُ مِنْ فَهْمِ اللِّسَانِ، وَتَجْدِيدِ الثِّقَةِ فِيهِ، وَتَفْعِيلِ مَنْطِقِهِ لِبِنَاءِ المُسْتَقْبَلِ.

المراجع

ابن جنّي. (1999). *الخصائص* (م. ع. النجار (ed.)). دار الكتب العلمية.

الجرجاني, ع. ا. (1984). *دلائل الإعجاز* (م. شاكر (ed.)). دار المعارف.

الفراهيدي, ا. ب. أ. (2003). *العين* (ت. د. م. ا. السامرائي (ed.)). دار الكتب العلمية.

حسان, ت. (1994). *اللغة العربية معناها ومبناها*. دار الثقافة.

سيبويه. (1988). *الكتاب* (ع. ا. هارون (ed.)). دار الجيل.

Aristotle. (1985). *Complete works of Aristotle, volume 1: The revised oxford translation* (J. Barnes (ed.)). Princeton University Press.

Barnes, J. (1995). *Cambridge companions to philosophy: The Cambridge companion to Aristotle* (J. Barnes (ed.)). Cambridge University Press.

Boudelaa, S., & Marslen-Wilson, W. D. (2013). Morphological structure in the Arabic mental lexicon: Parallels between standard and dialectal Arabic. *Language and Cognitive Processes, 28(10), 1453-1473.*

Carter, M. G. (2004). Sībawayhi. *(No Title).*

Chittick, W. C. (2010). *The Sufi path of knowledge: Ibn al-ʿArabi's metaphysics of imagination*. State University of New York Press.

Fishman, J. A. (1972). *Language and Nationalism: Two Integrative Essays*.

Habash, N. Y. (2010). *Introduction to Arabic natural language processing*. Morgan & Claypool.

Hallaq, W. B. (1997). *A history of Islamic legal theories: An introduction to Sunni Usul al-Fiqh*.

Hebb, D. O. (2002). *The organization of behavior: A neuropsychological theory*. Lawrence Erlbaum Associates.

Hofstadter, D. R., & Sander, E. (2013). *Surfaces and essences: Analogy as the fuel and fire of thinking*. Basic Books.

Horrocks, G. (2014). *Greek: A History of the Language and its Speakers*.

Jullien, F. (2004). *A treatise on efficacy: Between Western and Chinese thinking*.

Kandel, E. R., Schwartz, J. H., Jessell, T. M., Siegelbaum, S. A., & Hudspeth, A. J. (2000). *Principles of neural science, fifth edition* (5th ed.). McGraw-Hill Medical.

Lakoff, G., & Johnson, M. (2008). *Metaphors We Live By*. University of Chicago Press.

Lloyd, G. E. R. (1999). *Magic, reason and experience: Studies in the origins and development of Greek science*. Hackett Publishing.

Lloyd, G. E. R. (2012). *Early Greek science: Thales to Aristotle*. Vintage Digital.

Lowry, J. (2007). *Early Islamic Legal Theory: The Risāla of Muḥammad ibn Idrīs al-Shāfiʾī*. Brill.

Lucy, J. A. (1992). *Language diversity and thought: A reformulation of the linguistic relativity hypothesis*. Cambridge University Press.

Meillet, A. (1920). *Aperçu d'une histoire de la langue grecque*. Hachette.

Mignolo, W. (2011). *The darker side of western modernity: Global futures, decolonial options*.

Pinker, S. (2015). *Words and rules: The ingredients of language*. Basic Books.

Plato. (1997). *Plato: Complete works*. Hackett Publishing.

Powell, B. B. (1996). *Homer and the Origin of the Greek Alphabet*. Cambridge University Press.

Smith, L. T. (2021). *Decolonizing methodologies: Research and indigenous peoples*.

Smyth, H. W. (1920). *A Greek Grammar for Colleges*. American Book Company.

Ullman, M. T. (2004). Contributions of memory circuits to language: the declarative/procedural model. *Cognition*, *92*(1-2), 231–270.

Versteegh, K. (1997). *The Arabic Language*. Edinburgh University Press.

Wright, W., Caspari, C. P., & Robertson Smith, W. (2011). *A grammar of the Arabic language volume 1*. Nabu Press.

هَل اللُّغَةُ مُجَرَّدُ أَدَاةٍ نَسْتَخْدِمُهَا لِلتَّعْبِير، أَمْ أَنَّهَا "المِعْمَارُ الخَفِيُّ" الَّذِي يَبْنِي عُقُولَنَا وَيُشَكِّلُ حَضَارَاتِنَا؟

فِي رِحْلَةٍ فِكْرِيَّةٍ جَرِيئَةٍ وَغَيْرِ مَسْبُوقَةٍ، يَغُوصُ هَذَا الكِتَابُ فِي "الشِّفْرَةِ المَصْدَرِيَّةِ" لِاثْنَيْنِ مِنْ أَهَمِّ أَلْسِنَةِ التَّارِيخِ: **اللِّسَان العَرَبِيِّ "العُضْوِيِّ"** وَ**اللِّسَان الإغْرِيقِيِّ "الهَجِين"**. مُسْتَعِينًا بِأَدِلَّةٍ مِنَ اللِّسَانِيَّاتِ وَعُلُومِ الدِّمَاغِ وَتَارِيخِ الفَلْسَفَةِ، يُبَرْهِنُ البَحْثُ كَيْفَ أَنَّ "المُحَرِّكَ الاشْتِقَاقِيَّ" لِلعَرَبِيَّةِ قَدْ أَنْتَجَ "عَقْلِيَّةً تَوْلِيدِيَّةً" تَجَلَّتْ فِي مَنْطِقِ البَيَانِ وَأُصُولِ الفِقْهِ، بَيْنَمَا أَنْتَجَ "المُحَرِّكُ التَّرْكِيبِيُّ" لِلْيُونَانِيَّةِ "عَقْلِيَّةً تَحْلِيلِيَّةً" تَجَلَّتْ فِي المَنْطِقِ الأرِسْطِيِّ.

لَيْسَ هَذَا الكِتَابُ مُجَرَّدَ دِرَاسَةٍ مُقَارَنَةٍ، بَلْ هُوَ مَشْرُوعٌ لِفَهْمِ كَيْفِيَّةِ تَشَكُّلِ الهُوِيَّةِ وَالمَعْرِفَةِ. إِنَّهُ دَعْوَةٌ لِإِعَادَةِ النَّظَرِ فِي تَارِيخِ الفِكْرِ، وَأَدَاةٌ أَسَاسِيَّةٌ لِفَهْمِ أَزَمَاتِ الهَجَنَةِ اللُّغَوِيَّةِ وَتَحَدِّيَاتِ الهُوِيَّةِ فِي عَالَمِنَا المُعَاصِرِ.